د. عبد الستار قاسم



والميثاق مع بني إسرائيل
في التوراة والانجيل والقرآن

PASSIA
الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية - القدس الشريف

د. عبدالستار قاسم

إبـــراهـــيـــم (عليه السلام)

والـمـيـثـاق مع بـنـي إسـرائـيـل
فـي الـتـوراة والانـجـيـل والـقـرآن



PASSIA
الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية - القدس

الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية، مؤسسة مستقلة، لا تسعى الى الربح او التجارة او المنفعة المالية، وغير مرتبطة بأية جهة حكومية او حزبية او تنظيمية او طائفية، وتهدف اعداد بحوث ودراسات وعقد ندوات وحلقات دراسية في المسألة الفلسطينية في مضمونها الوطني الفلسطيني واطارها القومي العربي وابعادها الدولية، والاسهام في توظيف هذا الجهد الأكاديمي للتعريف بخصوصية وعناصر المسألة الفلسطينية.

إن ما ورد في هذه الدراسة من آراء وأفكار، يعبر عن وجهة نظر الباحث الشخصية ولا يعكس او يمثل بالضرورة موقف او رأي الجمعية الفلسطينية الأكاديمية للشؤون الدولية، او العاملين فيها. وقد قدم الباحث الدكتور عبد الستار قاسم، الاستاذ بجامعة النجاح الوطنية في نابلس، هذه الدراسة ضمن برنامج البحوث للعام ١٩٩١ في الجمعية ويهدف البرنامج الى ابراز التعددية الفكرية والمنهجية في اعداد البحوث الاكاديمية.

(الطبعة الأولى) تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٩١
(الطبعة الثانية) تموز (يوليو) ١٩٩٤

Dr. Abd El Sattar Kassim

Ibrahim in the Torah,
Bible & the Qur'an

PASSIA Publication & Copy Rights
First Edition - November 1991
Second Edition - July 1994

فاكس: ٢٨٢٨١٩-٢-٩٧٢ هاتف: ٨٩٤٤٢٦-٢-٩٧٢
ص.ب. ١٩٥٤٥
القدس

المحتويات

مقدمة

تبحث هذه الدراسة في أصل ومكانة وذرية سيدنا إبراهيم عليه السلام وفي الميثاق مع بني إسرائيل في كل من التوراة والانجيل والقرآن. إنها محاولة لقراءة النصوص حول هذا الموضوع في الكتب الثلاثة وتحليلها واستخلاص العبرة السياسية منها، والتي يمكن أن يكون لها تأثير ما في الوقت الحاضر. إن هناك ربط في السياق بين مختلف الأفكار الواردة والقيم الأخلاقية في الكتب، وذلك لكي يكتمل التصور حول النظرة العامة لمختلف الكتب حول الموضوع شأن البحث.

وهذا البحث لا يهتم إطلاقا بقضية أصالة ما هو وارد في الكتب الثلاثة. فهذه مسألة تترك للمؤرخين ولا تشكل بالنسبة الى الباحث إلا أمرا تاريخيا لا علاقة له بجوهر ما هو موجود. يأخذ الباحث الكتب الثلاثة باعتبارها كتبا مقدسة للديانات الثلاث، وهي تشكل جوهر وقواعد الايمان لدى جمهور المؤمنين من اليهود والمسيحيين والمسلمين. فسواء آمن الباحث أو لم يؤمن بما ورد في أي من الكتب الثلاثة، وسواء آمن القارىء أو لم يؤمن، فان الحقيقة تبقى قائمة وهي أن أصحاب واتباع تلك الكتب، يتمسكون بها بصفتها كتبا سماوية تنطق بالحقيقة. وهكذا فان هذه الدراسة لا تستقصي تأريخية الكتب وإنما تنقب عن الفكر المطروح فيها.

وموضوع البحث هام لأنه يتناول مسألتين في غاية الأهمية هما: شعب الله المختار وأرض الميعاد. فاسرائيل لا تنفك تذكر العالم بأن أرض فلسطين هي أرض الميعاد التي وعدها الله "شعبه المختار." وهي قادرة على ان تقنع عددا من الناس بهذه المقولة بناء على نصوص في التوراة دون أن يلتفت هؤلاء إلى الأرضية الفكرية التي استندت اليها المقولة. والبحث يتوقف عند هذه الأرضية لكي لا تبقى المقولة مجرد فكرة جافة ومعزولة عن إطارها العام. فيأخذ من التوراة ما يجعل من الأمر أكثر وضوحا، ثم يناقش موضوعه في ضوء ما ورد في كل من الانجيل والقرآن.

وينطلق البحث أساسا مما ورد في التوراة لأنه الكتاب الذي يتحدث باسهاب عن "الاختيار والوعد"، ولأن هذه النصوص تغذي الفكر السياسي الصهيوني بشأن هذين الموضوعين. وقد يقول قائل إن في هذا إجحافا لأن الكتب القديمة لم تعد تشكل أساسا للتفكير السياسي. لكنه يغفل عن حقيقة أن الكتب المقدسة تشكل القاعدة التربوية الأولى التي تتفتح أعين الأطفال عليها، وإن لم يكن هذا صحيحا على وجه الاطلاق فعلى وجه العموم. كما أن هذا صحيح بصورة خاصة بالنسبة الى اليهود الذين وجدوا في التوراة وفي كتبهم الدينية الأخرى آلية لخلق ربط ثقافي فيما بينهم في مختلف أماكن تواجدهم.

ولكي يتحقق الغرض من هذا البحث، فقد قسم إلى عدة فصول. يهتم الفصل الأول بخلق الكون وذلك لتبيان طريقة التفكير التي ينطلق منها كل من الكتب المقدسة. ونستشف من هذا الفصل نظرة كل كتاب إلى الذات الالهية وقدراتها وصفاتها، وإلى الكون كجسم واحد محكوم بنظام معين. أما الفصل الثاني فيستعرض شخصية سيدنا إبراهيم من حيث أصله وذريته وإيمانه. ثم يعرض الفصل الثالث إلى الميثاق فيناقش معناه ومغزاه وانعكاسه على العلاقة مع الآخرين وحدود مملكة بني إسرائيل بما فيها مدينة القدس. ثم يعرض الفصل الرابع والأخير ملخصا لفكر الكتب المقدسة حول القومية والأممية، التأريخ والأخلاق، الأرض وفكرة الاستقرار.

بقي أن أشير إلى أن نسختي التوراة والانجيل اللتين رجعت اليهما لانجاز هذا البحث هما الصادرتان في مجلد واحد عن دار الكتاب المقدس في العالم العربي، والذي طبع للمركز العالمي للكتاب المقدس في جبل الزيتون في مدينة القدس.

١- خلق الكون

تعتبر مسألة خلق الكون مدخلا للتعرف على المنطق الذي يميز كلا من التوراة والقرآن. إنها تعطيٍ فكرة واضحة عن نهج التفكير المتبع في الكتابين المقدسين لأنها تشكل اساسا تبنى عليه التفصيلات. تفتتح التوراة صفحاتها بسرد لخطوات خلق الكون، ويولي القرآن الأمر أهمية خاصة فيكرر ذكرها في العديد من الآيات. وفي كلا الكتابين تؤخذ المسألة كنقطة انطلاق نحو تبرير أو فهم الأحداث اللاحقة ونحو تحديد جدلياتها المختلفة. أي أن النظرة الأولى نحو الكون وكيفية الخلق لها علاقة مباشرة في تحديد مختلف العلاقات الانسانية وفهم التطورات الاجتماعية والتاريخية وغيرها.

تستهل التوراة سفرها الأول في توضيح الخطوات التي اتخذها الله في خلق الكون فتقول:

"في البدء خلق الله السموات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه المياه" (١).

أي أن مرحلة ما قبل الكون تميزت بالظلمات والمياه. ثم ابتدأ الله بخلق النور وبذلك خلق النهار والليل. لكن الكتاب لا يفسر كيف أصبح هناك نور ويوم كامل بنهاره وليله بينما لم يخلق الله الأنوار إلا في اليوم الرابع. إذ يقول النص الخاص باليوم الرابع:

"وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل. . . فعمل الله النورين العظيمين. النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم" (٢).

ربما تمت الاشارة إلى الليل والنهار بداية كأمر رمزي وليس كواقع عملي لأن وجودهما مرتبط بالشمس وعلاقتها بالأرض (٣).

في اليوم الثاني جزأ الله المياه.

"وقال الله ليكن جلد في وسط المياه. وليكن فاصلا بين مياه ومياه. فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد. وكان كذلك. ودعا الله الجلد سماء" (٤).

وفي اليوم الثالث خلق الله اليابسة. وأنبت فيها النبات الذي جعل تكاثره في بذوره. أما في اليوم الرابع فقد خلق الله الأنوار وذلك للفصل بين الليل والنهار ولمعرفة التواريخ والأوقات. ومن الملاحظ هنا أن التوراة تعتقد بخلق الأرض قبل الشمس. ثم خلق الله في اليوم الخامس الحيوانات بأنواعها والطيور. أما في اليوم السادس فخلق الانسان. وبذلك أتم الله خلق السموات والأرض

"وفرغ الله في اليوم السابع من عمله الذي عمل فاستراح في اليوم السابع من جميع عمله الذي عمل" (٥).

لكن التوراة تذكر في موقع آخر أن الله خلق السماء والأرض قبل أن يخلق النبات، وذلك بأن ظهر الماء على سطح الأرض ومن ثم خلق الله الانسان من طينها.

أما في القرآن فالأمر مختلف إلى حد كبير. فعلى الرغم من أن عددا من الكتاب والمستشرقين الغربيين يقول إن القرآن قد أخذ قصصه من التوراة واستند على العقل والكتابات المسيحية (٦)، إلا أن الاختلافات القائمة تضع علامة استفهام على مدى فهم هؤلاء لنصوص القرآن. في البداية، يتبين أن القرآن لا يسرد مسألة خلق الكون كقصة متوالية الأحداث، وإنما يذكرها، كما هو الحال بالنسبة الى عدد من الأمور الأخرى، في بعض من الآيات الواردة في سور مختلفة، لكنه ليس من العسير على القارىء أن يتتبع الترتيب والمعنى.

تظهر المفارقة الأولى والهامة بين القرآن والتوراة في مسألة خلق الكون في ستة أيام. تقول الآية القرآنية:

"أن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة ايام" (٧).

وآية أخرى

"الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة ايام ثم استوى على العرش الرحمن، فاسأل به خبيرا" (٨).

لكن من الصعب أن نفهم كلمة أيام حسب فهمنا الاعتيادي للكلمة لأن القرآن يعطي فهما مختلفا حيث يقول:

"الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون. يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج اليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون"(٩).

وفي آية أخرى يقول:

"تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة" (١٠).

يقول بعض المفسرين من علماء المسلمين أن كلمة يوم هنا تعني يوم القيامة لأن الكافر يشعر بأن اليوم أطول بكثير مما يتصور بسبب شدة العذاب (١١). لكن هذا التفسير لا يمت إلى النص بصلة ولا علاقة له بالكافر. من الواضح أن النص مرتبط بخلق السماوات والأرض وأن متابعة التفسير لمعنى اليوم كانت للتأكيد على أن المعنى الالهي له فهم مختلف عن الفهم البشري. وليس من المستبعد أن يكون للتفسير الحقيقي علاقة بالدورات الزمنية وليس بدوران الأرض حول نفسها.

وهذا ما يتمسك به موريس بوكاي الذي يورد رأي كل من أبو السعود والسيد يوسف علي، والذي يوجز فهم اليوم على أنه نوبة أو دورة زمنية طويلة (١٢).

أما بخصوص الأصل الذي انبثق عنه الكون فمن الواضح أن القرآن يؤكد الأصل المائي، فتقول الآية:

"وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء" (١٣).

ثم يذكر الغازات التي تحتوي الذرات الدقيقة والتي يعبر عنها بكلمة دخان، حيث يقول سبحانه وتعالى:

"ثم استوى إلى السماء وهي دخان...." (١٤).

ويقطع القرآن ايضا بأن السماء والأرض كانتا كتلة واحدة ثم انشقت الكتلة لتكون السماوات والأرض والكواكب والأجرام السماوية. يقول سبحانه:

"أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي...."(١٥).

ورغم أن التوراة تذكر الأصل المائي للكون، إلا أنه من المستبعد جدا أن الرسول محمد عليه السلام قد أخذ ما تبع ذلك عن أخبار بني اسرائيل، الأمر الذي لم يكن متناسبا مع المستوى العلمي الذي كان سائدا في ذلك الوقت.

وهناك فرق آخر هام بين التوراة والقرآن بخصوص الشمس والقمر وتتابع الليل والنهار. فبينما لا تميز التوراة بين الشمس والقمر كجسمين مضيئين بقولها "نيرين"، فان القرآن وصف الشمس بالسراج ووصف القمر بالمنير. تقول الآية:

"تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا" (١٦).

وتقول آية اخرى:

ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقا وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا" (١٧).

والمعنى هنا هو أن السراج له نور ذاتي بينما هناك شك في الجسم المنير الذي قد يكون نورة صادرا عن جسمه وقد لا يكون، لكن لا مجال للشك في أن النور صادر من السراج نفسه.

والقرآن تحدث عما يوحي باستدارة الأرض أو توسعها عندما قال:

"والأرض بعد ذلك دحاها" (١٨).

تقول بعض التفاسير أن دحاها تعني بسطها (١٩)، لكن هذا تفسير مغلوط لأن الكلمة "دحا" تعني وسع الشيء ليملأه (٢٠). ومما يؤكد أن هذا التوسع كان بمعنى التكوير قوله تعالى في الليل والنهار:

"ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل" (٢١).

وقوله

"يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل" (٢٢).

من هاتين الآيتين نفهم أن التداخل يأخذ شكل التدرج الانسيابي الكروي. وهذا أمر غير وارد في التوراة ولم يكن محمد عليه السلام على وعي بهذه الامور الفلكية.

ينطبق هذا الاتجاه الفلكي الموجود في القرآن، والذي لا تقف الاكتشافات ضده،

على العديد من الآيات القرآنية. فمثلا يقول القرآن إن الأجرام تسبح وذلك حسب الآية:

"لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون (٢٣).

وتتحدث آية أخرى عن أن الشمس تسير نحو وضع معين "والشمس تجري لمستقر لها" (٢٤).

والفرق الهام والأخير الذي تجدر الاشارة اليه هو أن التوراة تقول باستراحة الرب يوم السبت أو في اليوم السابع، بينما لا يذكر القرآن شيئا من ذلك. بل يقول تعالى:

"ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسنا من لغوب"(٢٥).

وكلمة لغوب هنا تعني التعب، ومعنى الآية الضمني هو أنه لم يحصل أي تعب، وإذا كان في ذلك رد عما ورد في التوراة فانه يعني أنه لا لزوم للراحة ما دام التعب لم يحصل.

وفكرة الاستراحة تحتوي ضمنا على بذل الجهد، وهذا بدوره يحتوي على نوع من التعب. بينما فكرة عدم التعب تعني أن الجهد لم يحصل، أو بصورة أدق، لم يبذل جهد كما نعرفه نحن البشر لينتج تعبا كما نعرفه أيضا. وفكرتا الاستراحة واللالغوب تنسجمان مع فكرتي التوراة والقرآن حول الذات الالهية. تصور التوراة الرب بانه:

"حكيم القلب وشديد القوة. من تصلب عليه فسلم، المزحزح الجبال ولا تعلم...."(٢٦). الأرض وما فيها لله. إنه خالقها وخالق ساكنيها لا يملك أحد أمرا إلا بأمره (٢٧). إنه إله صالح ومستقيم (٢٨).

ورغم أن التوراة تصف الرب بصفات كمالية فانها لا تصر عليها. ففي عدد من المواقع تتخلى عن كمال الرب لتضفي عليه بعض الصفات البشرية. فمثلا يشعر قارىء التوراة أن الرب قد يكون له جسم ويدان ووجه كما للبشر. ومن الممكن أن يتكلم بصوت يسمعه الانسان العادي أو أن يخوض جدلا أو أن يتراءى. فهي تنص على ان الرب يكلم "موسى وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه" (٢٩). والرب يحزن في بعض المواقع. لقد حزن أنه خلق الانسان وأسكنه الأرض عندما رأى معاصيه أيام نوح،

"وتأسف في قلبه. فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الانسان الذى خلقته. الانسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء. لأني حزنت أني عملتهم" (٣٠).

وكذلك ندم الرب عندما عاقب بني إسرائيل وأمر ملاكا بهدم المدينة المقدسة(٣١). وهو أيضا إله غيور ويطلب من موسى ألا يعبد آلهة أخرى

"لأني أنا الرب إلهك إله غيور...." (٣٢).

ويعبر عن شعوره بالمهانة عندما قال لموسى "حتى متى يهينني هذا الشعب"(٣٣).

يختلف القرآن في ذلك عن التوراة. إن القرآن ينزه الذات الالهية ولا يضفي عليها أي صفة بشرية. فيبقى وصف الذات الالهية على ذات الوتيرة دون اختلال في توازنها. تقول الآية:

"الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا باذنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء وسع كرسيه السموات والأرض ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم" (٣٤).

وتقول أخرى:

"له ملك السموات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير. هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم. هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون خبير" (٣٥).

أما الانجيل فانه لا يتطرق إلى مسألة خلق الكون. فما من انجيل من الاناجيل الأربعة يذكر أيام الخلق أو تتابعها مما يجعلها خارج مجال المقارنة. لكن المسيحية، حسب تفسيرات الأب يوسف سعادة، تعتمد روح ما ورد في العهد القديم في هذا الصدد. أي أنها تؤمن بمقدرة الله على خلق الكون في زمن محدود، ودون إعطاء تفسيرات حرفية للتتابع الزمني الوارد أو للتاريخ الذي يمكن تحديده من خلال ذلك. أي أن الوصف التوراتي يرمز إلى المقدرة الالهية ولا يصف الحدث التاريخي كما حصل فعلا (٣٦).

وتدعم النظرة المسيحية إلى السبت هذا الرأي.فيوم السبت في الانجيل ليس بالحرفية التي تتمسك بها التوراة، من حيث أن السيد المسيح (عيسى بن مريم) كان يقوم ببعض الأعمال أيام السبت كاشفاء المرضى والتعليم رغم معارضة اليهود(٣٧). ويقول التفسير المسيحي إن من المفروض أن يكون للانسان وقت للراحة لا أن ينقطع بالضرورة عن العمل في وقت محدد. أي ان المسيحية لا تلتقي مع اليهودية في تفسير طبيعة يوم السبت، ومن هنا فليس هناك نص الزامي على المسيحي ان يستريح بالضرورة في أيام الآحاد بينما يلتزم اليهود المتدينون بالراحة يوم السبت التزاما تاما.

٢- الهوامش

١- تكوين، ١: ١

٢- تكوين، ١: ١٤-١٦.

٣- موريس بوكاي، التوراة والانجيل والقرآن والعلم، ترجمة بحاثة من الدعاة، بيروت: دار الكندي، ١٩٧٨، ص ٣٥.

٤- تكوين، ١: ٦-٨.

٥- تكوين، ١: ١-٢.

٦- Norman Daniel, Islam and the West, Edinburgh: The University Press, 1980, P. 47.

٧- الأعراف، ٥٤.

٨- الفرقان، ٥٩.

٩- السجدة، ٥ -٦.

١٠- المعارج، ٤.

١١- تفسير الجلالين، طبعة مكتبة الملاح، دمشق: مكتبة الملاح، ص ٥٤٨.

١٢- موريس بوكاي، م س ، ص ١٢٦.

١٣- هود، ٧.

١٤- فصلت، ١١.

١٥- الأنبياء، ٣٠.

١٦- الفرقان، ٦١.

١٧- نوح،١٥ -١٦.

١٨- النازعات، ٣٠.

١٩- ٢٠- انظر معنى دح ودحا في المنجد.

٢١- لقمان، ٢٩.

٢٢- الزمر، ٥.

٢٣- يس، ٤٠.

٢٤- يس، ٣٧.

٢٥- ق، ٣٨.

٢٦. ايوب، ٩:٤ - ١٠.

٢٧- مزامير، ٢٤.

٢٨- مزامير، ٩:٢٥.

٢٩- خروج، ١١:٢٣.

٣٠- تكوين، ٦:٦ - ٧.

٣١- صموئيل الثاني، ١٤:٢٤ - ١٧.

٣٢- الخروج: ٢٠ : ٥.

٣٣- عدد، ١٤ : ١١.

٣٤- البقرة، ٢٥٥.

٣٥- الحديد، ٤٠٢.

٣٦- في مقابلة معه في منزله بتاريخ ١٩ آب، ١٩٩١.

٣٧: لوقا، ٦:٦ - ١١.



ظهور سيدنا إبراهيم

يتضح من الفصل الأول من هذا البحث، أن التوراة والقرآن يختلفان في تقرير الحدث، وكذلك في فهمهما له. ومن الواضح أن القول بأن القرآن يستمد قصصه من التوراة يفتقر إلى العلمية والقراءة الجيدة للنصوص. فالتوراة تهتم بشكل رئيسي بسرد الحدث متتابعا، فيما لا يهتم القرآن بذلك قدر اهتمامه بالفكرة. ومسألة خلق الكون بالنسبة الى التوراة عبارة عن قصة في الأساس، ولكنها في القرآن عبارة عن فكرة توضع أمام المؤمن للاستدلال على القدرة الالهية. وهذا التميز يبقى مستمرا في الأحداث التي تلت، وينطبق إلى حد كبير كما سنرى، على ظهور سيدنا إبراهيم عليه السلام ومسيرة حياته.

١- نسبه

تسهب التوراة في تفصيل الأنساب وتحديد شجرة العائلة التي انحدر منها سيدنا إبراهيم عليه السلام. فهي تنص على أن إبراهيم أو أبرام، كما تدعوه في البداية، من نسل نوح الذي ركب الفلك ناجيا من الطوفان. حمل نوح معه في الفلك أبناءه "حام وسام ويافث". ولأن الطوفان قضى على كل "ذي جسد كان يدب على الأرض .من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التي كانت تزحف على الأرض وجميع الناس" (١)، فمن هؤلاء الأبناء "تشعبت كل الأرض" (٢). ومنهم، وبالتحديد من سام، انحدر إبراهيم.

تتحدث التوراة عن أعمار نوح وأبنائه وتتسلسل في الحديث عن البنين والأحفاد، وعليه فهي تحدد تأريخ بدء الخليقة. ويمكن من خلال ذلك الاستدلال على المحطات التاريخية التالية. فحسب التقويم العبري ابتدأ التاريخ منذ ٥٧٥٢ سنة، أي منذ خلق آدم. وإذا أجرينا حساب السنين كما هو وارد في التوراة، وذلك كما فعل

بوكاي، يكون نوح قد ولد بعد آدم بحوالي ألف عام، ويكون الطوفان قد حصل بعد ذلك بحوالي ١٦٥٠ سنة. وإذا اعتبرنا أن الفاصل بين آدم وعيسى بن مريم (المسيح) هو حوالي ٣٨٠٠ سنة فان الطوفان قد حصل حوالي سنة ٢١٥٠ قبل الميلاد (٣).

وفي سنة ٢١٥٠ قبل الميلاد، حسب التوراة، أبيدت الأحياء عن وجه الأرض لتبدأ حياة جديدة بعد الطوفان. لكن الدراسات التاريخية تشير إلى وجود حضارات هامة في ذلك الوقت، وأن الأرض كانت معمورة ومليئة بالحيوية.

حسب هذا التتابع الزمني يكون إبراهيم قد ولد بعد خلق آدم بحوالي ١٩٥٠ عاما وقبل المسيح بحوالي ١٨٥٠ سنة. وكان على بني الانسان أن يصبحوا أمما في فترة وجيزة جدا. وهذا أمر من الصعب تحقيقه بيولوجيا.

إبراهيم هو ابن تارح وولد في أور من أرض الكلدانيين. تزوج من امرأة اسمها "ساراي" والتي ظهر فيما بعد أنها عاقر. رحل تارح وإبراهيم ولوط ابن عم إبراهيم وساراي إلى ارض كنعان مرورا ببلدة حاران. مات تارح في حاران وأكمل الآخرون المشوار إلى أرض كنعان حيث أقاموا أولا في شكيم (٤).

يتبنى الانجيل إلى حد كبير ذات الأنساب الابراهيمية الواردة في العهد القديم. ومن بين الاناجيل الأربعة انجيل لوقا لا يتحدث عن نسب إبراهيم في إصحاحه الثالث. يتسلسل لوقا من آدم حتى إبراهيم ذاكرا عشرين إسما وذلك بزيادة إسم واحد على قائمة التوراة وهو حينام. أما نسب عيسى بن مريم (المسيح) فمذكور في مستهل إنجيل متى وكذلك في انجيل لوقا. وعلى الرغم من أن هناك اختلافا في تتبع النسب وفي عدد الأجداد إلى سيدنا إبراهيم، فان الانجيلين يتفقان على أن إبراهيم هو جد عيسى بن مريم (المسيح) وأن مريم العذراء من نسل اسحق.

والانجيل أكثر وضوحا من العهد القديم بخصوص رسالة إبراهيم الدينية. فرغم أن الاشارات إلى إبراهيم في الاناجيل الأربعة قليلة، إلا أن هذه الاشارات لا تتعلق غالبا بمسائل الانحدار العرقي أو القبلي. وهناك إشارة في أعمال الرسل إلى مسألة النسل والأبوة الجسدية، لكنها ايضا مرتبطة بمسألة الشر والاثم والتبريك. فمثلا قال أحد الرسل مخاطبا اليهود:

"أنتم أبناء الأنبياء والعهد الذي عاهد به الله آباءنا قائلا لابراهيم وبنسلك تتبارك جميع قبائل الأرض. إليكم أولا إذ أقام الله فتاه يسوع أرسله يباركك برد كل واحد منكم عن شرورها" (٥).

ومن الواضح أن الرب الذي أتى المسيح ليحدث عنه هو ذات الرب الذي تحدثت عنه التوراة، إذ يقول الانجيل

"الرب إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب" (٦).

لكن هذا الرب ليس رب مجموعة من الناس فقط بغض النظر عن أفعالهم. وعليه فقد تحدى يوحنا المعمدان اليهود في قولهم إن الرب إلههم وحدهم وأنهم هم أبناء الله. ففي محاورة له مع الفريسسيين والصدوقيين قال:

"يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي. ما صنعوا أثمارا تليق بالتوبة. ولا تفتكروا أن تقولوا في أنفسكم لنا إبراهيم أبا. لأني أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لابراهيم" (٧).

وهذا رد واضح على التمسك بمسألة النسل والانحدار القبلي من إبراهيم. فهذه مسألة لا تقي ولا تحمي ولا تأتي برضا الله، وأن الله لا يبحث عن أولاد له ولا هو مهتم بأن يكون هناك أناس يشكلون قبيلة أبناء له. فهو ليس بحاجة إلى أبناء ولو أراد لحول الحجارة إلى أولاد. يريد الله أن يهدي الناس وهو يدعوهم إلى التوبة

وذلك من خلال العمل الصالح الموصوف هنا بالثمار. وبالتالي فان الذين يبتعدون عما أراد الله ليسوا بأولاد الله إنما أولاد الأفاعي.

يأتي إنجيل يوحنا على هذه المسألة بصورة أكثر وضوحا وذلك في محاورة بين السيد المسيح (عيسى بن مريم) واليهود حول الحرية والايمان به. يدعو السيد المسيح (عيسى بن مريم) اليهود الى الايمان به وبكلامه لكي يكونوا حقيقة تلاميذه وليعرفوا الحق لأن حريتهم في ذلك. فأجابوه بأنهم أحرار لأن إبراهيم أبوهم، وهم لم يكونوا عبيدا قط فأجابهم يسوع أن الذي يقع في الخطيئة يكون عبدا لها. وقال بأنه يعلم أنهم ذرية إبراهيم ولكنهم لا يقبلون كلامه. فكرروا عليه القول بأن أباهم إبراهيم. فقال:

"لو كنتم أولاد إبراهيم لكنتم تعملون أعمال إبراهيم" (٨).

وأضاف بأنهم يريدون قتله لأنه يتكلم الحق، وهذا عمل ما كان لابراهيم أن يقدم عليه. وأضاف:

"أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا. ذاك كان قتالا للناس من البدء ولم يثبت في الحق لأنه ليس فيه حق .... الذي من الله يسمع كلام الله. لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله" (٩).

فقالوا له إنه يرى نفسه أعظم من إبراهيم والأنبياء، فأجاب عيسى بن مريم (المسيح) أن إبراهيم تهلل بأن يرى يومي فرأى وفرح (١٠).

هذا تأكيد على أن الذي يعمل الخطيئة هو ابن إبليس، أما إبن إبراهيم فهو الذي يسمع كلام الرب ويلتزم به. وإذا كان هناك من يقول إن إبراهيم أبوه أو جده فان ذلك لا يعني التنزيه أو التقديس. ابن إبراهيم هو صاحب الايمان والفضيلة. أي أن الانجيل لا يقيم أي معيار قبلي أو عرقي للحكم على الناس، ولا يعترف بحدود للأديان أو الأنساب. وفي هذا رد واضح على القائلين بأن المسيحية مجرد امتداد

للفكر المطروح في التوراة، وأنها لا تأتي بجديد ولا تقاوم الفكر المبني على رابطة الدم. إنها تؤكد الايمان وتجعله المعيار الأوحد في الحكم على الناس وإقامة العلاقات المختلفة، وهو أيضا معيار الحرية والتحرر من نير الاثم وفعل الشر.

أما القرآن فانه لا يدخل في مثل هذه التفاصيل. فيورد القرآن قصة خلق آدم دون أن يكون هناك أي مجال للتكهن حول السنين أو التأريخ. لكن القرآن يتحدث بعد خلق آدم عن خلق الانسان وتطور الجنين من نطفة إلى علقة فمضغة (١١). ويذكر نوحا والطوفان الذي أهلك قومه الفاسقين دون أن يهلك الحياة على الأرض. تقول الآية:

"وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية وأعتدنا للظالمين عذابا أليما" (١٢).

ذكر نوح في القرآن ثلاثا وثلاثين مرة، لكن هذا الذكر يتعلق غالبا بالموعظة والهداية إلى سبيل الله. وذكر إبراهيم اثنتين وستين مرة لم يكن فيها أي محاولة لتحديد شجرة العائلة أو الانحدار العرقي، لكنه في إحدى الآيات ذكر اسم والد إبراهيم. "وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين" (١٣). وهذه الآية تخالف التوراة في تسمية والد إبراهيم الذي ورد في التوراة ان اسمه "تارح". هذا وقد استغفر إبراهيم لأبيه بسبب ضلاله فجاءت الآية تفسر لماذا كان ذلك الاستغفار من دون الناس:

"وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه، فلما تبين له أنه عدو الله تبرأ منه، إن إبراهيم لأواه حليم"(١٤).

٢- فكرة التوحيد

تنشغل التوراة كثيرا بابراهيم وأجداده وأحفاده، وتركز كثيرا على وعود الرب لابراهيم والامتيازات التي منحت له ولذريته من بعده. لكنها في المقابل لا تقدم

الفلسفة أو المعتقد الذي حمله إبراهيم، ولا تخصص مجالا للفكرة التي وقف من أجلها إلا ضمن إطار الميثاق الذي يلزم الرب نفسه برعاية إبراهيم وقومه مقابل الالتزام بعدم معصية الرب والخروج عن أوامره. وتركز التوراة كذلك على تنقلات إبراهيم وتمجيده وذريته وعلى المستقبل العظيم الذي ينتظر الأحفاد.

يختلف القرآن إلى حد كبير عن التوراة في تقديم إبراهيم لجمهور المؤمنين. فيقدمه أولا وهو يبحث عن إله وبطريقة لا تبتعد عن الاستنتاج العقلي. تحدثنا الآيات من سورة الأنعام قائلة:

"فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي، فلما أفل قال لا أحب الآفلين. فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي، فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين. فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر، فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون (١٥). ثم يستنتج إبراهيم قائلا "إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين"(١٦).

بعد ذلك يبين القرآن عدم رضا قوم إبراهيم من توجهاته الجديدة ومحاجتهم إياه. لكن إبراهيم يرد عليهم بكلمات حازمة واضحة:

"وحاجه قومه، قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا وسع كل شيء علما أفلا تتذكرون" (١٧).

أي أن إبراهيم يؤكد وحدانية الله ويدعو قومه إلى التفكر في هذا الأمر. وحتى يشجعهم على التفكير بما يقول والايمان بالله الواحد ينبههم إلى حالة الأمن التي تشكل نعمة كبيرة إذا حققها الانسان قائلا:

"وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون" (١٨).

ثم ينتقل إبراهيم إلى بعض الصفات الالهية التي يعجز من هم دون الله عن الاتصاف بها وذلك لدفع قومه إلى التفكير السليم الذي يوصل في النهاية إلى الحقيقة:

"واتل عليهم نبأ إبراهيم، إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون؟ قالو نعبد أصناما فنظل لها عاكفين. قال هل يسمعونكم إذ تدعون؟ أو ينفعونكم أو يضرون؟ قالوا بل وجدنا آبائنا كذلك يفعلون. قال أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون؟ فانهم عدو لي إلا رب العالمين، الذي خلقني فهو يهدين، والذي يطعمني ويسقين، وإذا مرضت فهو يشفين، والذي يميتني ثم يحيين والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي الى يوم الدين. رب هب لي حكما وألحقني بالصالحين، واجعل لي لسان صدق في الآخرين واجعلني من ورثة جنة النعيم، واغفر لأبي إن كان من الضالين، ولا تخزني يوم يبعثون. يوم لا ينفع مال ولا بنون. إلا من أتى الله بقلب سليم"(١٩).

ولم يقف إبراهيم عند حد الوعظ والارشاد، بل انتقل إلى الهجوم على آلهة قومه من الأصنام، وأكد أن الوثنية ليست إلا ضلالا .

"ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين، قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين" (٢٠).

ثم تابع مهددا وقام بتحطيم الأصنام إلا كبيرها ليجعله عبرة.

"وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون"(٢١).

فكرة التوحيد هذه التي يبينها القرآن هي الاسلام، وإبراهيم لم يكن إلا مسلما وذلك تبعا لأمر الله له. تقول الآية عن إبراهيم:

"ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين. إذ قال له ربه أسلم، قال أسلمت لرب العالمين" (٢٢).

ويؤكد القرآن أن أي ادعاء بأن إبراهيم كان يعتنق دينا آخر غير صحيح بقوله:

"يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم ... ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين" (٢٣).

وإذا كان هناك تفاضل بين الأديان فان الدين الذي سار عليه إبراهيم هو الدين الأقوم الذي يسلم المرء لرب العالمين (٢٤).

يقول بعض الكتاب الغربيين أن القرآن يقع بهذا في خطأ تاريخي كبير لأن الاسلام لم يظهر إلا بعد إبراهيم بأكثر من ألفي عام. فكيف يكون مسلما في الوقت الذي لم يكن قد ظهر فيه الاسلام؟ وفي هذه الحجة ما يشير إلى عدم المعرفة بمعنى كلمة إسلام. إنها لا تعني فقط دين الاسلام الذي ظهر بعد عيسى بن مريم (المسيح)، وإنما تعني استسلام المرء لله لا لغيره فيعبده ويتوكل عليه ويرجو الخير منه ولا يلتجأ إلا إليه. إنها محبة الله وموالاته وعدم الشرك به. فمن عبد غير الله لا يكون مسلما وكذلك من استكبر عن إطاعة أوامره (٢٥).

الولاء هنا ليس لقبيلة أو عرق أو جنس. إنها الفكرة التي تعتق الانسان من الاذلال والاستسلام لبشر أو حجر أو شجر أو أي إله ينبثق عن عجز الانسان. إنها فكرة التوحيد التي تقود المرء إلى التسليم بأمر الله القادر والمدبر وصانع الكون. وهي فكرة لكل الناس ولا تميز بين هذا وذاك إلا بناء على المعتقد والاهتداء بأمر الله. وعليه فان إبراهيم ليس نبيا لقوم من دون الأقوام ولا لجنس من دون الأجناس بل "إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه.... (٢٦). ولهذا فان القرآن حازم عندما سأل إبراهيم عما إذا كان سيكون من ذريته إماما للناس. فيقول:

"وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما وقال ومن ذريتي؟ قال لا ينال عهدي الظالمين" (٢٧).

وقد عرف القرآن الظالمون بأنهم " ومن لم يحكم بما أنزل الله ...." (٢٨). أي أن الله لم يعد إبراهيم بان يكون من ذريته إمام للناس رغم انه لن يكون هناك إمام. وقد اشترط الله فقط عدم وجود الظلم وأن كل من يظلم سواء كان من ذرية إبراهيم أو من غيرها لن يكون إماما.

الفكرة المسيحية حول إبراهيم بصورة عامة لا تتناقض مع الفكرة الاسلامية رغم أن الفكرة الاسلامية أكثر شمولا ووضوحا خاصة بشأن مسألة التوحيد. ويعطي القرآن مدى أوسع في إنضاج فكرة التوحيد لدى إبراهيم، لكنه يؤكد أيضا أن الايمان هو الذي يحدد مدى قرب المرء من إبراهيم أو بعده عنه. فابراهيم، في الانجيل والقرآن هو أب المؤمنين، وهو ليس أبا لجاحد أو كافر أو صاحب معصية وخطيئة. وإذا كان لنا أن نضع هذا بعبارات مادية فان المؤمنين هم الذين يرثون إبراهيم وليس الذين يرتبطون به برابطة دم دون أن يكونوا مؤمنين. أي أن الكفار أو الوثنيين سواء كانوا عربا أو عبرانيين أو من اية قومية اخرى لا يحق لهم الادعاء بأن إبراهيم هو أبوهم وأنهم وارثوه ما داموا خارجين عن طريق الايمان.

والترجمة السياسية لهذه المعطيات هي أن ما يملكه إبراهيم من تراث إنساني وديني ليس حكرا على قوم أو عرق وإنما هو خاصة للمؤمنين. وإذا كان إبراهيم يملك أرضا أو أطيانا أو أي شيء من متاع الدنيا فهو ليس لمن ينحدرون من نسله وإنما للذين يتبعونه فكريا، أي للمؤمنين.

وإذا جاز أن نقول أن فلسطين هي "ملك" لابراهيم، أو أن إبراهيم قد ملك أرض الميعاد بقضاء إلهي، فان هذه الأرض، حسب المسيحية والاسلام ليست للعبرانيين أو لليهود. تصر التوراة على أن الأرض قد وعدت لذرية إبراهيم بعد ان تقطع بان هذه الذرية هم العبرانيون. وكذلك الاسلام الذي يقول بأن إبراهيم هو جد

المسلمين، أي الذين أسلموا أمرهم لله. وإذا كانت مشيئة الله في أن تعلو كلمته فانه من المنطقي أن يدعم الذين يحملونها دون غيرهم. وإلا فكيف يمكن تفسير العدالة الالهية إذا كان الله سينحاز الى قوم حتى ولو لم يلتزموا بقواعد الايمان؟

٣- زواجه وذريته

تزوج إبراهيم، حسب التوراة، من امرأه إسمها ساراي والتي أصبح اسمها سارة حسب مشيئة الرب (٢٩). كانت سارة عاقرا وصاحبة جمال وافر. وأثناء ترحال إبراهيم في مصر طلب منها أن تقول أنه أخوها وذلك لكي لا يؤذيه المصريون إذا عرفوا أنه زوجها وطمعوا في جمالها. وهكذا حصل. أعجبت سارة المصريين فقدموها لفرعون الذي رغب في الزواج منها. لكن فرعون رأى ما قض مضجعه قبل أن يمسها، فاستفسر عن حقيقتها، فردها إلى زوجها مكرمة، وخرجت ومعها جارية اسمها هاجر (٣٠).

يلوم عدد من الكتاب الاسلاميين التوراة على هذه القصة لأنها تحط من قدر إبراهيم الذي حاول أن يفلت بجلده حتى لو وقع الأذى على زوجته. والقرآن لا يأتي على ذكر هذه القصة، لكن هناك بعض الكتب التي تتحدث عن قصص القرآن منها كتاب الباحث المصري محمد جاد المولى. يقول الكاتب حول هذا الأمر أن سارة كانت ذات جمال باهر فوشى بها أحد بطانة فرعون. فدعا الملك إبراهيم وسأله عن رباطه بالمرأة، فقال إنها أخته وذلك حتى لا يبيت له الشر. أدخلت سارة القصر، وعندما اقترب منها الملك شعرت باضطراب وخوف فتركها وعاد إلى فراشه دون أن يمسها بسوء وعندما عرف الحقيقة أكرمها وردها إلى زوجها (٣١).

وهذه القصة غير القرآنية لا تختلف عن قصة التوراة إلا في أن إبراهيم استبق الحدث في التوراة بينما كان تفكيره ابن اللحظة إسلاميا. وهذا اختلاف لا قيمة له إذا أخذنا بالاعتبار مآخذ بعض الكتاب المسلمين. في النهاية، تصور القصتان إبراهيم على أنه أراد أن ينجو بغض النظر عن النتائج التي يمكن أن تحصل.

على أية حال تبقى الأهمية التاريخية لرحيل إبراهيم إلى مصر متمثلة في هاجر التي اصبحت زوجة لابراهيم بناء على طلب سارة حسب الرواية التوراتية. كانت سارة عاقرا ورأت أن يدخل إبراهيم على هاجر عسى أن تلد له ولدا ولكنها انقلبت عليها عندما رأتها قد حملت من ابراهيم، فصغرت في عينيها. ولم يكن من إبراهيم إلا أن سلم هاجر لسارة تصنع بها ما تشاء فسامتها ذلا ومهانة مما قاد هاجر إلى الهرب. وتكمل التوراة القصة قائلة:

"فوجدها ملاك الرب على عين الماء في البرية. على العين التي في طريق شور. وقال يا هاجر جارية ساراي من أين أتيت وإلى أين تذهبين. فقالت أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي. فقال لها ملاك الرب ارجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها. وقال لها ملاك الرب تكثيرا أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة. وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين إبنا. وتدعينه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك. وإنه يكون إنسانا وحشيا. يده على كل واحد ويد كل واحد عليه"(٣٢).

هذه القصة تحتمل أمرين: إما أنها ادعاء وافتراء وإما أن الله ظالم. إذا افترضنا صحتها فان الله قد مارس الظلم ضد امرأة حملت بعد أن سمحت لها ضرتها بالزواج، وهو كذلك لأنه رضي ذلها وخضوعها بسبب هروبها من الذل والهوان. أما إذا آمنا بوجود الله وأنه خالق هذا الكون وأنه مطلق الحكمة ومطلق العدالة، فاننا لا يمكن أن نأخذ القصة مأخذ الجد ولا بد من نعتها بالزيف والبهتان. وهذا ينطبق على إبراهيم الذي سلم المرأه لغيظ ضرتها مما أوقع عليها ظلما أجبرت على البقاء تحته. فاما هو نبي عادل، أو أنه مجرد أسطورة لا علاقة له بالنبوة، وإما أن القصة تلفيق وعدوان.

ولم يكتف الرب، حسب القصة، باعادة هاجر إلى ظلم سارة، بل وعدها من خلال الملاك أن يكون ابنها إنسانا وحشيا. وبذلك يكون من الصعب تصور إله يخلق إنسانا موصوفا سلفا بالوحشية ومعاداة الناس. إنه أمر يتناقض تماما مع بديهيات الايمان بالله.

قصة زواج إبراهيم غير واردة في القرآن، ولم يزد ما ورد بهذا الشأن عن آية واحدة يشكر فيها إبراهيم ربه لأنه رزق بولدين. يقول إبراهيم:

"الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل واسحق إن ربي لسميع الدعاء"(٣٣).

من الواضح أن إسماعيل تقدم على إسحق لأنه ولد أولا، الأمر الذي تؤكده التوراة. لكن القرآن لا يميز بين هذا وذاك ويعامل الاثنين على ذات المقام:

"قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون" (٣٤).

ولد لابراهيم بعد إسماعيل ابن آخر اسمه إسحق وهو ابن سارة. وفي قصة هذا الميلاد لا يختلف القرآن مع التوراة. يذكر الكتابان بشرى زفت إلى سارة أنها سترزق بولد لأن مشيئة الله قد اقتضت ذلك. لكن القرآن يضيف بأن سارة بشرت بيعقوب من بعد إسحق (٣٥).

يظهر من خلال قراءة التوراة أن مولد إسحق قد أذن بمشادة ولو ضمنية قادتها سارة في مواجهة إسماعيل. لا يلاحظ في التوراة انسجام وتوافق بين الأخوين خاصة أنهما ابنا نبي من المفترض أن يكون منصفا وعادلا ولا يسمح لنزاع أن يحصل بين الأخوين. بالقدر الذي تحاول التوراة فيه إبراز النزاع أو التنافر بين الأخوين، يعطي القرآن فكرة واضحة عن صلاحهما ومباركة الرب لهما. يظهر هذان الاتجاهان المختلفان في معالجة هذه المسألة في قصة افتداء ابن إبراهيم.

تروي التوراة القصة فتقول :

"إن الله امتحن إبراهيم فقال له يا أبرام. فقال هأنذا، فقال خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق، واذهب إلى جبل المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك. فبكر إبراهيم صباحا وشد على حماره وأخذ اثنين من غلمانه مع إسحق ابنه وشق حطبا لمحرقة وقام وذهب إلى الموضع الذي قال له الله... فلما أتيا إلى الموضع الذي قال له الله بنى هناك إبراهيم المذبح ورتب الحطب وربط إسحق ابنه ووضعه على فوق الحطب. ثم مد إبراهيم يده وأخذ السكين ليذبح ابنه فناداه ملاك الرب من السماء وقال إبراهيم إبراهيم. ونظر وإذا كبش وراءه ممسكا في الغابة بقرنيه. فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضا عن إبنه" (٣٦).

أما القرآن فيروي القصة كما يلي: يقول إبراهيم لابنه:

"يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى، قال: يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين، فلما أسلما وتله للجبين وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين، إن هذا لهو البلاء المبين، وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه الآخرين، سلام على إبراهيم، كذلك نجزي المحسنين، إنه من عبادنا المؤمنين، وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين، وباركنا عليه وعلى إسحق" (٣٧).

يعتبر النص التوراتي أن إسحق هو الابن الوحيد لابراهيم، وقد تم التأكيد على ذلك بالتكرار. وهذا الاعتبار يحتمل أمرين: إما أن التوراة تتجاهل إسماعيل متعمدة لأنه ابن هاجر التي كانت جارية في وقت ما، أو أن الحدث قد حصل فعلا عندما كان لابراهيم إبن واحد فقط. إذا كان الاحتمال الأول هو الصحيح فان في ذلك لمحات من الشعور بالتميز والتفوق لصالح إسحق بناء على أسس وراثية وليس على قواعد استحقاقية. ما الذي يجعل إسماعيل غير ذي حق بأبوة بينما يكون لاسحق ذات الأب؟ إذا كان ذلك يتحدد بناء على مكانة الأم الاجتماعية فان الله الذي ينعت إسحق بالابن الوحيد لن يكون تماما هو الاله الذي يؤمن به المسلمون. ذلك لأن الله لا يدع مجالا للتمييز بين بني الانسان إلا بالتقوى دون أن يكون في ذلك مبرر

لايقاع الظلم أو الأذى. وكذلك لا يجيز الله أن تتحول الأدوار الاجتماعية إلى أسباب وراثية تدعو إلى تفضيل شخص على آخر.

أما إذا كان الاحتمال الثاني هو الصحيح فان القصة تنطبق على إسماعيل وليس على إسحق. أي أن الحدث قد حصل عندما كان إسماعيل الابن الوحيد لابراهيم وقبل أن يولد إسحق. والتوراة تقر بما يقول القرآن بأن إسماعيل قد ولد أولا. فاذا كان الحديث الوارد متعلقا بالذات الالهية فعلا مع الأخذ بعين الاعتبار عدل الله وقدرته فانه لا مفر من اعتبار إسماعيل الشخصية المعنية في القصة.

وهذه النقطة الأخيرة هي ما تقره الرواية القرآنية التي لم تعط تفصيلات الحدث. وبعكس الرواية التوراتية، يؤكد القرآن أن الحدث حصل قبل مولد إسحق، أي عندما كان إسماعيل بالفعل إبنا وحيدا لابراهيم. ويؤكد كذلك عدم التمييز بين إسماعيل وأخيه ويقول بأنهما مباركان وأن إسحق سيكون (بعد التبشير بة) من الأنبياء الصالحين.

هناك في التوراة ما يشير إلى أن الواقعة قد حصلت قبل ميلاد إسحق لأنها تعتبر إسماعيل إبنا لابراهيم. ففي نفس السفر تقول حول وفاة إبراهيم:

"ودفنه إسحق وإسماعيل ابناه في مغارة المكفيلة في حقل عفرون" (٣٨).

فكيف يكون إسحق ابنا وحيدا إذا كان إسماعيل ابنا أيضا؟ لا تتمسك التوراة، على أية حال، بهذه الاشارة طويلا، ففي ذات الاصحاح تعود لترفض حقوق أبناء إبراهيم الآخرين ولترفضهم ضمنا كأبناء لابراهيم."وأعطى إبراهيم إسحق كل ما كان له. وأما بنو السراري اللواتي كانت لابراهيم فأعطاهم إبراهيم عطايا وصرفهم عن إسحق ابنه شرقا إلى أرض المشرق وهو بعد حي" (٣٩). وفضلا عن أن هذا يناقض الاقرار بأن إسماعيل ابن إبراهيم، فهو يناقضه أيضا في أن إسماعيل أبعد إلى الشرق في الوقت الذي يقر فيه وجود إسماعيل جنبا إلى جنب مع إسحق حين

وفاة والدهما. ويناقض القول الذي اتى في أخبار الأيام الأول والذي ينص "أبرام وهو إبراهيم، إبنا إبراهيم إسحق وإسماعيل" (٤٠).

التحيز ضد إسماعيل واضح التعمد وسبق الاصرار في عدد آخر من محاورات التوراة. فمثلا تقول إحدى المحاورات أن إسماعيل (إبن هاجر) كان يمزح ذات مرة مما ساء سارة، فأمرت إبراهيم بطرد "هذه الجارية وابنها. لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحق" (٤١). لم يرق الكلام لابراهيم بسبب ابنه، لكن الله لم يرض بذلك وأمره بألا يستاء من "أجل الغلام ومن أجل جاريتك"، ويتابع الله حديثه مختارا الكلمات بعناية ودقة قائلا "في كل ما تقول لك سارة إسمع لقولها. لأنه باسحق يدعى لك نسل. وابن الجارية أيضا سأجعله أمة لأنه نسلك" (٤٢). إذن نسل إبراهيم هو نسل إسحق، وأن تاريخ إبراهيم وأحفاده يعرف من خلال إسحق وأولاده، أما إسماعيل فيكون له أمة لا تعرف بابراهيم.

والتوراة غير قادرة على حسم أمرها من إسماعيل. إنها تتردد كثيرا في الاعتراف به كابن لابراهيم، لكنها لا تجد مفرا من ذلك. ومع ذلك فانها في النهاية تضعه في منزلة متدنية لصالح إسحق. وعلى الرغم من أن إسحق هو المبارك إلا أن التوراة لا تخفي منافسة إسماعيل له وذلك من خلال عدم التركيز على أخوتهما الآخرين. لقد كان لابراهيم أبناء آخرون، لكن التوراة لا تعيرهم ذات الانتباه. وكأن إسماعيل كان صاحب منزلة فتعمدت الحط من منزلته لتنفي ذلك. وذلك نوع من أنواع الاسقاط.

أما القرآن فلا يهتم في البحث عن ذرية إبراهيم إلا في مجال النبوة. وهو يقر بأن إسحق وإسماعيل نبيين ولهما ذات المنزلة عند الله. أي أن المعيار هو معيار ديني ولا علاقة له بالنسل أو الابوة الجسمانية. وهذا ما تؤكده مساواة القرآن بين جميع الأنبياء.

يبدو أن التوراة تحاول أن تهرب من مسألة ضم نسل إسماعيل إلى التبريك الالهي، وذلك لكي تبقي على البركة محصورة في بني إسرائيل المنحدرين من سارة. والفكر السياسي الصهيوني القائم يعكس هذا الهرب. فهذا الفكر يتمسك بالسامية ويحارب بشده مظاهر اللاسامية لأن في ذلك مساسا باليهود بشكل عام. وفي مقاومته هذه لا يتطرق أبدا إلى أن العرب ايضا ينحدرون من الجنس السامي. فعلى أي أساس تنحصر السامية في اليهود؟

إذا كانت السامية جنسا بشريا أو عرقا فانه من الصعب الهروب من سامية إسماعيل ونسله لأنهم ينحدرون من إبراهيم، ولا يوجد هناك أي منطق علمي يمكن أن يرفض إسماعيل ونسله كأبناء لابراهيم بناء على ما هو وارد في التوراة. أما إذا كان الجنس أو العرق غير مرتبطين بالدم فان التبريك الالهي يحسم الموقف. لكن هذا يضعنا أمام الاستفسار عن العدالة الالهية التي تجعل نسل إبراهيم من إسحق مباركا ولا تجعل نسله من إسماعيل كذلك. ما هو المعيار الالهي لهذا التمييز؟

أجابت المسيحية على ذلك بأن قالت أن الله لا يميز بين هذا وذاك إلا بناء على الايمان. والتمييز ليس بمنح أحد حقوقا دنيوية على حساب آخر، وإنما في اليوم الآخر عندما يثاب كل إمرء أو يعاقب بناء على عمله. ولهذا قال عيسى بن مريم (المسيح) لمحاوريه من اليهود:

"لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره" (٤٣).

وقال عن المساكين المؤمنين كند لليهود إن لهم الخير ولهم ملكوت السموات، والخير للجياع والباكين. والخير لهؤلاء إذا كرههم الناس ووصفوهم بالشر. ويقول لهم "إفرحوا في ذلك اليوم يوم الكره والتعبير عنه من قبل الأخرين وتهللوا. فهو ذا أجركم عظيم في السماء. لأن آباءهم هكذا كانوا يفعلون بالأنبياء" (٤٤). وقال المسيح أن القرابة تتحدد بالتقوى والرحمة وليس بروابط الدم (٤٥). وقال:

"طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه" (٤٦).

لم يترك القرآن هذه المسألة دون إجابة. فقد خاطب الله المؤمنين قائلا:

"كنتم خير أمة أخرجت للناس" (٤٧).

أي أن أفضل الناس هم المؤمنين بالله والطائعون لأوامره. وقال أيضا:

"يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير" (٤٨).

وهنا لم يكن التمييز بين المؤمنين وغير المؤمنين بطريقة تحرم غير المؤمنين من حقهم في أرضهم أو من حقهم في السعي في مناكب الأرض أو من أن يحصلوا على المعاملة الحسنة وأن يحظوا بالعدالة والانصاف وإنما من ناحية الثواب والعقاب والجنة والنار يوم الدين.

وما دام الأمر كذلك، فما الذي يجعل اضهاد اليهود عملا سيئا ويجعل اضطهاد العرب إلى عدالة وحق؟ وهل التحريض ضد اليهود عملا إجراميا، بينما يمكن أن يلاقي التحريض ضد العرب تبريرا مقبولا؟

٤- بناء البيت

تتابع التوراة حديثها بعد أن أمر الرب إبراهيم بضرورة الاستماع إلى سارة فيما تطلب، فتقول أن إبراهيم أعد بعض الخبز والماء لهاجر وابنها وأخرجهما. ومضت هاجر وتاهت في براري النقب. وبعد أن نفذ الماء تركت وحيدها وابتعدت عنه حتى لا تراه يموت. لكن الله رأف بالولد فأرسل الملاك الذي خاطب هاجر واعدا إياها أن يكون من إسماعيل أمة عظيمة. فقامت هاجر إلى ابنها وحملته ومن ثم وجدت بئرا فملأت القربة التي معها، وسكنت وابنها البرية (٤٩).

هذه هي المرة البارزة التي وردت في التوراة تتحدث عن أمة عظيمة من إسماعيل. والتوراة لا تشرح كيف تكون عظمة أمة إسماعيل ولا تذكر ما إذا كانت النبوة ستكون عنصرا في ذلك.

أما القرآن فيتحدث عن نبوة في ذرية إبراهيم فيقول:

"وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب" (٥٠).

ذلك أن إبراهيم كان مؤمنا حق الايمان مما دعا إلى وصفه "وإبراهيم الذي وفى"(٥١). أي أنه نفذ وصايا ربه وأطاع أمره. ولهذا فقد "واتخذ إبراهيم خليلا"(٥٢). والخليل هو المحب الذي لا خلل في محبته، والخلة تشمل كمال المحبة(٥٣).

ورغم عصمة إبراهيم الخليل، إلا أن القرآن لا يفصل ترحاله وتنقلاته وذلك لأن القرآن، كما أشرت سابقا، لا يهتم بسرد القصص إلا إذا كانت منتهية بعبرة يفيد منها جمهور المؤمنين. إنه غير معني بالتاريخ وإنما بالموعظة والهداية. لكن بعض القصص الاسلامية التي لم ترد في القرآن لا من قريب ولا من بعيد تتحدث عن سفر إبراهيم فتقول أنه وزع أبناءه إلى مناطق مختلفة. بقي إسحق مثلا في بلاد الشام. وأرسل إسماعيل وأمه إلى الحجاز، وأرسل الآخرين إلى مناطق مغايرة (٥٤). لكن القرآن يشير إلى أن إبراهيم قد ذهب إلى بلاد الحجاز وذلك بقوله "وإذ بوأنا لابراهيم مكان البيت ...." (٥٥). أي بينا لابراهيم مكان بناء بيت الله وهو الكعبة. مما يعني أن إبراهيم قد ذهب إلى بلاد الحجاز.

لكن القصص الاسلامية تقول أن إبراهيم قد ذهب إلى الحجاز قبل أن يبين الله له مكان بناء البيت. فقد سبق أن اصطحب هاجر وإسماعيل إلى تلك البقعة وتركهما هناك بناء على أوامر الله. وهناك تفجرت مياه بئر زمزم رحمة من الله بالمقيمين (٥٦). ومن المحتمل أن تكون هذه القصة هي التي تقابل قصة التوراة

حول تيه هاجر في برية النقب. فالله قد بارك إسماعيل في بلاد الحجاز وأنزله مكانا مباركا انبثقت منه أمة الاسلام.

ويشير القرآن إلى أن إبراهيم وإسماعيل باشرا ببناء البيت بعد التعرف على مكانه وذلك بقوله:

"وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم" (٥٧).

ثم أمر الله إبراهيم بأن يقيم منسكا من مناسك الاسلام بقوله:

"وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق"(٥٨).

أي إرفع الآذان وليكن الموقع الذي أنت فيه يا إبراهيم مكان الحج حيث يأتي الناس من كل مكان.

ويكمل القرآن العبرة من بناء البيت على لسان إبراهيم وإسماعيل بأن دعيا ربهما:

"ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم. ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم" (٥٩).

وهناك في بلاد الحجاز ترسخت دعائم الاسلام الأولى وفصل ما بين الدار الأولى والدار الآخرة، بين الايمان والكفر. فقد قال إبراهيم ...

"رب إجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر، وقال من كفر فأمتعه قليلا ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير"(٦٠).

٥- الهوامش

١- تكوين ، ٧ : ٢١.
٢- تكوين ، ٩ : ١٩.
٣- بوكاي ، م س ، ص ٤٠.
٤- تكوين ، ١١ - ١٢.
٥- أعمال الرسل ، ٣ : ٢٥-٢٦.
٦- لوقا ، ٢٠ : ٣٧.
٧- متى ، ٣ : ٧-٩.
٨- يوحنا ، ٨ : ٣٩.
٩- يوحنا ، ٨ : ٤٤-٤٧.
١٠- يوحنا ، ٨ : ٥٦.
١١- الحج ، ٥.
١٢- الفرقان ، ٣٧.
١٣- الأنعام ، ٧٣.
١٤- التوبة ، ١١٤.
١٥- الأنعام ، ٨٦-٧٨.
١٦- الأنعام ، ٧٩.
١٧- الأنعام ، ٨٠.
١٨- الأنعام ، ٨١.
١٩- الشعراء، ٦٩-٨٩.
٢٠- الأنبياء، ٥١-٥٤.
٢١- الأنبياء، ٥٧.
٢٢- البقرة ، ١٣٠.
٢٣- آل عمران ، ٦٥-٦٧.
٢٤- النساء ، ١٢٥.
٢٥- ابن تيمية ، كتاب النبوات، ص ٨٧.
٢٦- آل عمران ، ٣.
٢٧- البقرة ، ١٢٤.
٢٨- المائدة ، ٤٥.
٢٩ تكوين ، ١١ : ٢٩ ، تكوين ، ١٧ : ١٥.
٣٠- تكوين ، ١٢ : ١٤-٢٠.
٣١- محمد جاد المولى ، قصص القرآن ، ص ص ٤٩-٥١.
٣٢- تكوين ، ١٦ : ٧-١٢.
٣٣- إبراهيم ، ٣٩.
٣٤- البقرة ، ١٣٦.
٣٥- انظر التوراة ، تكوين ، ١٨ : ٩-١٥، والقرآن، هود، ٦٩-٧٦.
٣٦- تكوين ، ٣١ : ١-١٣.
٣٧- الصافات ، ١٠٢ - ١٠٣.
٣٨- تكوين ، ٢٥ : ٩.
٣٩- تكوين ، ٢٥ : ٥-٦.
٤٠- أخبار الأيام الأول ، ١ : ٢٧-٢٨.
٤١- تكوين ، ٢١:١٠.
٤٢- تكوين ، ٢١ : ١٢-١٣.
٤٣- متى ، ٢١ : ٤٣.
٤٤- لوقا، ٦ : ٢٣-٢٤.
٤٥- لوقا ، ١٠ : ٢٥-٣٧.
٤٦- لوقا ، ١١ : ٢٨.
٤٧- آل عمران ، ١١٠.

٤٨- الحجرات، ١٣.

٤٩- تكوين ، ٢١ : ١٤-٢٠.

٥٠- العنكبوت ، ٢٧.

٥١- النجم ، ٣٧.

٥٢- النساء ، ١٢٥.

٥٣- عفيف طبارة ، مع الأنبياء ، بيروت: دار العلم للملايين ، ص ١٣١.

٥٤- أحمد الصباحي عوض الله ، حياة وأخلاق الأنبياء، بيروت : دار إقرأ ،١٩٨٤، ص ١٠٠.

٥٥- الحج ، ٢٦.

٥٦- محمود شلبي، حياة إبراهيم، ط ٢، بيروت: دار الجيل، ١٩٧٤، ص ص ١٣١-١٣٥.

٥٧- البقرة ، ١٢٧.

٥٨- الحج ، ٢٧.

٥٩- البقرة ، ١٢٨-١٢٩.

٦٠- البقرة ١٢٦.


http://kotob.has.it

الميثاق

تشكل مسألة الميثاق الذي أقامه الرب مع بني إسرائيل محورا أساسيا في التوراة. فلا يكاد يخلو سفر من أسفار الكتاب من إشارة مباشرة أو غير مباشرة إلى الميثاق ومدى تمسك بني اسرائيل به. إنه أشبه بعهد يتبادل فيه طرفان، الرب وبنو إسرائيل، الوعود الملزمة التي تنظم العلاقة بينهما. يلزم الرب نفسه بحماية بني إسرائيل وبشد أزرهم ضد أعدائهم ورعايتهم مقابل أن يلتزم بنو إسرائيل بحفظ وصايا الرب والعمل حسب نصوصها. وحيث أن الميثاق قائم بين طرفين فان أي إخلال ببنوده من قبل أي منهما يعني أن الطرف الآخر لم يعد ملتزما به أو لم يعد الميثاق ملزما له.

ميثاق الرب مع بني إسرائيل قديم ويبدأ بعهد نوح. فالعلاقة بين الرب ونوح تظهر مع التزام نوح بالخلق القويم ومحاولته اقناع قومه بالسير على نهج حياتي يخلو من الشرور. وعندما رأى الرب أن لا مفر من معاقبة القوم بالطوفان طلب من نوح أن يبني فلكا يأوي إليه نوح وأهله. وتعلل التوراة ذلك بقول الرب لنوح:

"لأني إياك رأيت بارا" (١).

ثم يطور الرب هذه العلاقة بعد انتهاء الطوفان ويقرر إقامة ميثاق مع نوح وأهله قائلا:

"وها أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم. ومع كل ذوات الأنفس الحية التي معكم. الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض التي معكم من جميع الخارجين من الفلك حتى كل حيوان الأرض ... أقيم ميثاقي معكم فلا ينقرض كل ذي جسد أيضا بمياه الطوفان. ولا يكون أيضا طوفان ليخرب الأرض"(٢).

ولا يكتفي الرب بحديث شفوي حول الميثاق، وإنما يعمل على وضع إشارة يتذكر بها ميثاقه. وكأنه يريد أن يطمئن بني إسرائيل إلى أن الأمر ليس مجرد وعد قابل للنسيان أو الزوال. فيقول:

"وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض. فيكون متى أنشر سحابا على الأرض وتظهر القوس في السحاب أني أنكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حية في كل جسد على الارض" (٣).

ومن ثم يبارك الرب نوحا وبنيه ويطلب منهم التكاثر لملء الأرض. ويقول لهم إنه قد دفع إلى أيديهم كل حيوانات الأرض وطيور السماء وأسماك البحر (٤).

ينتقل الرب في ميثاقه مع بني إسرائيل خطوة كبيرة في حديثه مع ابراهيم (من نسل نوح). فبعد أن حدد ميثاقه مع نوح بألا يأتي بطوفان آخر على الأرض وأن يدفع إلى أيدي نوح وبنيه الحيوانات، امتد الميثاق مع ابراهيم ليشمل تبريكه وتفضيله على سائر الخلق. فيخاطبه الرب قائلا:

"فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم إسمك. وتكون بركة. وأبارك مباركك ولاعنك ألعنه. وتتبارك فيك جميع قبائل الأرض" (٥).

وكان الله قبل أن يعلن تبريكاته قد أمر ابراهيم أن يغادر أرضه وعشيرته التي كانت تسكن في بلدة "أور" جنوبي بلاد ما بين النهرين.

ويبدو أن الرب طلب من ابراهيم مغادرة أور ليتجه نحو أرض الكنعانيين التي قرر الرب أن يعطيها له ولذريته. فعندما وصل البلاد حيث موقع مدينة نابلس الآن ظهر الرب وخاطب ابراهيم قائلا:

"لنسلك أعطي هذه الأرض" (٦).

وتضيف التوراة "وقال الرب لأبرام (ابراهيم) ...

> ارفع عينيك وانظر من الموضع الذي أنت فيه شمالا وجنوبا وشرقا وغربا، لأن جميع الأرض التي أنت ترى لك أعطيها ولنسلك إلى الأبد. وأجعل نسلك كتراب الأرض" (٧).

أي أن الميثاق أصبح يشتمل على أمور مادية ملموسة متمثلة بقطعة من الأرض يقيم عليها الكنعانيون. ولم تترك التوراة في هذا الأمر شائبة غموض، بل أوضحت

> "... قطع الرب مع أبرام ميثاقا قائلا لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات" (٨).

يكرر الرب هنا لابراهيم ما سبق أن طلبه من نوح كاشارة لحفظ العهد ألا وهو الختان. فقد أصر الرب على أن تكون علامة حفظ نوح وابراهيم ونسلهما لعهده في أبدانهم (٩).

تذكر التوراة أن إبراهيم كان متزوجا من امرأتين سارة وهاجر. ولهذا فقد عمد الرب إلى تخصيص ميثاقه مع ابناء سارة أو أبناء إسحق دون أبناء اسماعيل. فحسب التوراة فان سارة، كما ذكر سابقا، كانت مقربة جدا من إبراهيم بينما لم تتعد هاجر والدة اسماعيل منزلة الجارية. فتذكر التوراة

> "وأما اسماعيل فقد سمعت لك فيه (مخاطبا إبراهيم). ها أنا أباركه واثمره وأكثره كثيرا جدا ... ولكن عهدي أقيمه مع اسحق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت في السنة الآتية" (١٠).

أي أن الرب قرر إقامة عهده مع شخص لم يكن قد ولد بعد.

لا يكف الرب عن التذكير بميثاقه. فهو لا يتوقف عند اعطاء عهده لنوح وإبراهيم، وانما يجدد التذكير بالميثاق وابرامه مع اغلب الأنبياء المذكورين في التوراة. فلم يكن يعقوب ابن اسحق أقل منزلة، حيث ينص الكتاب

"وهو ذا الرب واقف عليها فقال أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحق. الأرض التي انت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك" (١١).

ليس فقط أن الرب يقتطع أرضا وانما يتعهد ليعقوب بأن تبقى لنسله إلى الأبد:

"وها أنا معك وأحفظك حينما تذهب وأردك إلى هذه الأرض لانى لا أتركك حتى أفعل ما كلمتك به" (١٢).

فالميثاق لا ينتهي بفترة زمنية محددة وانما يمتد عبر الزمن. إذا خرج نسل يعقوب من الأرض المخصصة لهم لسبب أو لآخر فان الرب لن يتركهم، بل يعمل على تنفيذ ما وعد به.

حفظ الرب عهده بعدما خرج بنو اسرائيل من أرض الكنعانيين الى مصر على إثر استقرار يوسف بن يعقوب في مصر. وحسب التوراة، اضطهد العبرانيون في مصر وواجهوا من الفراعنة قسوة وغلظة. وعندما أصبحوا في ضائقة شديدة وأخذوا يصرخون ويتألمون

"صعد صراخهم الى الله ... فسمع الله أنينهم فتذكر الله ميثاقه مع إبراهيم وإسحق ويعقوب" (١٣).

وحيث أن موسى كان يتزعم العبرانيين وقتئذ فقد اختاره الرب ليكون الوسيط معهم. عرف الله نفسه أولا على موسى بأن اسمه "يهوه"، وأنه أقام منذ زمن عهدا مع أجداده تعهد بموجبه أن يعطيهم أرض كنعان. فتابع الرب قائلا إنه سمع أنين شعبه

"فنزلت لانقذهم من أيدي المصريين وأصعدهم من تلك الأرض الى أرض جيدة وواسعة. الى ارض تفيض لبنا وعسلا. الى مكان الكنعانيين" ... (١٤)

وعليه فان الرب لن يألو جهدا في تحرير المضطهدين الذين قرر أن يتخذهم له شعبا وأن يكون لهم الها (١٥).

لا يبدو من التوراة أن الرب راغب في أن يكون رب البشر جميعا. فهو يفضل أن يخصص نفسه فقط لبني اسرائيل. إنه لا ينفي أنه رب جميع البشر لكنه لا يذكر ذلك ايضا. وإنما يذكر تكرارا انه إله بني اسرائيل، وانهم شعبه. فمثلا، يقول مخاطبا العبرانيين:

"إياك قد اختار الرب الهك لتكون له شعبا اخص من جميع الشعوب الذين على وجه الأرض. "ليس من كونكم اكثر من سائر الشعوب التصق الرب بكم واختاركم لأنكم أقل من سائر الشعوب. بل من محبة الرب إياكم وحفظه القسم الذي أقسم لآبائكم" (١٦).

أو قوله

"فالآن إن سمعتم لصوتي وحفظتم عهدي تكونون لي خاصة من بين جميع الشعوب فان لي كل الأرض. وانتم تكونون لي مملكة كهنة وأمة مقدسة"(١٧).

لكن الرب، على أية حال، لا يفسر لماذا اختار العبرانيين بالذات ليكونوا شعبه، ولا يذكر لماذا عقد ميثاقه معهم دون غيرهم من القبائل والشعوب.

هناك إشارة في عاموس إلى أن الله قرر إهلاك بعض الشعوب في دمشق وغزة وصور لأنها اقترفت الذنوب. ومن جملة ما يقول:

"هكذا قال الرب. من أجل ذنوب صور الثلاثة والأربعة لا أرجع عنه لأنهم سلموا سبيا كاملا إلى أروم ولم يذكروا عهد الأخوة" (١٨).

ويستنتج بعض الكتاب من هذا أن الميثاق كان مع كل شعوب الأرض وليس مع العبرانيين فقط (١٩). لكن هذا القول لا يدل على وجود ميثاق مع الرب. فعهد الأخوة هذا غير واضح ومن المحتمل أن يكون عهد أخوة مع العبرانيين. والتوراة لا تترك مجالا لعهود أخوة مع الشعوب الأخرى وهي تفتح دائما الباب لعلاقات متوترة مع الآخرين. فالتوراة لا تعتبر أن للعبرانيين إخوانا وتنكر في بعض المواقع الأخوة الناشئة عن رابطة الدم. وعليه فان هذا النص لا يمكن اعتباره دليلا على عهود أو مواثيق مع الله.

هذا، ويشترط الرب حفظ العبرانيين لوصاياه إذا ما توقعوا وقوفه معهم في السراء والضراء. فحسب ما تقص التوراة، إذا حفظ الشعب وصايا الرب فان المطر ينزل في حينه وتثمر الأشجار والحقول وتكون الأيام نعيما وسلاما،

"لا يعبر سيف في أرضكم، وتطردون أعداءكم فيسقطون أمامكم بالسيف. يطرد خمسة منكم مئة ومئة منكم يطردون ربوة ويسقط أعداؤكم أمامكم بالسيف وألتفت إليكم وأكثركم وأفي ميثاقي معكم" (٢٠)،

أما إذا لم يعملوا بوصايا الرب وحسب ميثاقه فانه يسلط عليهم

"رعبا وسلا وحمى تفني العينين وتتلف النفس وتزرعون باطلا زرعكم فيأكله أعداؤكم. وأجعل وجهي ضدكم فتنهزمون أمام أعدائكم ويتسلط عليكم مبغضوكم وتهربون وليس من يطردكم" (٢١).

تكرر التوراة طلب الرب من بني إسرائيل حفظ وصاياه، وكذلك يفعل الأنبياء. ان داود مثلا يوصي ابنه سليمان بحفظ شريعة موسى لكي يفلح في كل ما يعمل وحيثما توجه (٢٢)، وفكرة الفلاح هذه هي النتيجة الحاصلة في النهاية إذا أطاع الشعب ربه. فالرب يقول أن الانسان لا يحيا إلا بحفظ فرائضه وشرائعه (٢٣)، بالاضافه إلى الفلاح ، فان الرب، لقاء عمل شعبه الخير، سيسكن في وسط بني اسرائيل ولا "أترك شعبي اسرائيل" (٢٤).

في نفس الوقت الذي يكرر فيه الرب مزايا الاستماع لأوامره، فانه يكرر ذكر العواقب الوخيمه التي تحل ببني اسرائيل إذا فضلوا العصيان. فالرب سريع الغضب وسريع الانتقام وقادر على صنع المعجزات وما لا يتصوره البشر. فمثلا يهدد الرب قائلا:

"ولكن إن لم تسمع صوت الرب ... ملعونا تكون في المدينة وملعونا تكون في الحقل ... يرسل الرب عليك اللعنة والاضطراب ...، يلصق بك الرب الوباء حتى يبيدك عن الأرض ... وتكون السماء التي فوق رأسك نحاسا والأرض التي تحتك حديدا" (٢٥).

ولهذا فان موسى عمل على ترسيخ هذا العهد بالدم وعلى رؤوس الأشهاد. فقد حدث موسى شعبه وأقام الطقوس التي من شأنها أن تقيدهم بعهد الرب معهم :

"فجاء موسى وحدث الشعب بجميع أقوال الرب وجميع الأحكام. فأجاب جميع الشعب بصوت واحد وقالوا كل الأقوال التي تكلم بها الرب نفعل. فكتب موسى جميع أقوال الرب. وبكر في الصباح وبنى مذبحا في أسفل الجبل واثني عشر عمودا لأسباط إسرائيل الاثني عشر. وأرسل فتيان بني إسرائيل فأصعدوا محرقات ونبحوا نبائح سلامة للرب من النيران. فأخذ موسى نصف الدم ووضعه في الطسوس. ونصف الدم رشه على المذبح. وأخذ كتاب العهد وقرأ في مسمع الشعب. فقالوا كل ما تكلم به الرب نفعل ونسمع له. وأخذ موسى الدم ورش على الشعب وقال هو نا العهد الذي قطعه الرب معكم على جميع هذه الأقوال" (٢٦).

ومن الجدير بالذكر أن التوراة تعطي انطباعا قويا بان رد فعل الرب على أفعال بني اسرائيل يكاد يكون فوريا. فاذا كان بنو اسرائيل في طاعته ويعملون حسب وصاياه فان دعواتهم وطلباتهم تستجاب. فهو يسكن بينهم ويسمع أنينهم وبالتالي هو يحرسهم ويسحق أعداءهم. أما إذا كانوا في معصيته فانه لا يتوانى في إنزال العقاب السريع. فهو سريع الغضب وغيور. إنه ينزل الوباء ويفشي الامراض ويشتت الشمل. ويتضح هنا أن مكافأة بني إسرائيل وعقابهم يجريان على الأرض وبصورة

لا تحتمل الانتظار. فالحساب لا يؤجل الى ما بعد الموت ليكون بمنطق جنة أو نار. إنه على الأرض وبمنطق عزة لا يعلو عليها شيء أو ذلة لا مثيل لها.

لهذا تزخر التوراة بأحاديث حول معجزات قام بها الرب. فمن أجل شعبه قام الرب بشطر البحر لينقذهم من ملاحقة فرعون وجيشه (٢٧). ومن أجلهم منح موسى العصا التي أذهلت الاعداء (٢٨)، وقد أمر الرب موسى بطرح شجرة في ماء ملح ليتحول الى ماء عذب يشرب منه الشعب (٢٩)، وعندما شعروا بالجوع أمطرت السماء عليهم خبزا (٣٠)، ومن الناحية الاخرى وضع الرب شعبه تحت حكم غيرهم من الشعوب عندما عبدوا آلهة الكنعانيين والحثيين (٣١). وأنزل وباء ثلاثة أيام عندما عصاه داود (٣٢)، وسلط عليهم الأشوريين والبابليين عندما أخلوا بوصاياه(٣٣).

تتحدث التوراة بعد هذا التحديد الواضح للميثاق عن عهد جديد مع بني إسرائيل ويهودا. وهي تقول إنه عهد مختلف عما سبق وعما أعطي للآباء والأجداد، فتقول :

"ها أيام تأتي يقول الرب وأقطع مع بيت إسرائيل ومع بيت يهودا عهدا جديدا. ليس كالعهد الذي قطعته مع آبائهم يوم أمسكتهم بيدهم لأخرجهم من أرض مصر حين نقضوا عهدي فرفضتهم يقول الرب. بل هذا هو العهد الذي أقطعه مع بيت إسرائيل بعد تلك الأيام يقول الرب. أجعل شريعتي في داخلهم وأكتبها على قلوبهم وأكون لهم إلها وهم يكونون لي شعبا. ولا يعلمون بعد كل واحد صاحبه وكل واحد أخاه قائلين اعرفوا الرب لأنهم كلهم سيعرفونني من صغيرهم إلى كبيرهم يقول الرب. لأني أصفح عن إثمهم ولا أذكر خطيتهم بعد" (٣٤).

يختلف هذا العهد المستقبلي عن العهد الذي سبق. فهو من ناحية يتخلى عن الاشارات المادية المرافقة للعهد. فلا يطلب علامة في الأبدان ولا يلزم الرب بأية آية مادية تثبت لبني إسرائيل أنه ما زال متمسكا بما وعد به. وهذايعتبر تطورا معنويا لروح العهد فيما إذا عقد. ومن ناحية أخرى، يظهر التطور الروحي جليا

لهذه الخطوة التي ستتخذ في بث الايمان داخل النفوس وليس مجرد الاكتفاء ببعض المظاهر الخارجية. بمعنى أن التعاليم السماوية ستصبح جزءا من التكوين الانساني بمختلف جوانبه. وهذا ما دعا إلى إسقاط الشرط الذي طالما ذكر الرب به بني إسرائيل وهو ضرورة حفظ الوصايا والتعاليم لكي ينالوا حماية الرب وتأييده. أسقط هذا الشرط الآن لأن الشريعة ستكون في داخل كل فرد وستكتب على قلبه، أي أن الفرد سيتقيد بها كأمر حتمي وكنتيجة لهذا التطور في بث الإرادة الإلهية.

لكن من الملاحظ أن التوراة لم تتخل عن فكرة أن الرب يقيد ألوهيته بالعبرانيين على الرغم من أن هذا العهد قد تخلى عن فكرة رابطة الدم ووضع محلها معرفة الرب. فمن المفروض حسب هذا التطور ألا يعلم كل فرد أخاه والذي قد يعني أن الايمان سيتحول إلى قضية فردية ولن يبقى مسألة جماعية. وعليه فان الرب سيتخلى عن ملاحقة الناس الذين يصعب، حسب النص، تحديد من هم بسبب التحدث عنهم بضميري الجمع والمفرد في أن واحد، وهو أيضا لن يعود إلى تذكر معاصيهم. وبسبب عدم وضوح دلالات الضمائر الواردة في النص أعلاه فان فهم العهد المستقبلي هذا يبقى مشوشا. هل المقصود الناس كأفراد حسب عدم علم الواحد عن أخيه، أم المقصود الشعب بأكمله؟

١- الميثاق في الانجيل والقرآن

لا تتحدث الأناجيل الأربعة عن الميثاق مع العبرانيين، لكن الانجيل بصورة عامة هو العهد الجديد في مقابل التوراة المعروفة مسيحيا بالعهد القديم. أي أن المسيحية تعترف بالعهد القديم، وهي بالتالي تعترف بأن الله وعد بني إسرائيل وعودا شكلت في مجموعها الميثاق. والوعود التي قطعت لبني إسرائيل لم تعد قائمة لأن المسيح أتى بفكرة جديدة تختلف تماما عن النعم المادية المرافقة لميثاق الرب مع بني إسرائيل.

أتى المسيح لكي يخلص الانسان، لكي يحرره من طغيان الخطيئة لا ليعده الأرض والمساعدة الربانية المادية على الأرض.وهذه فكرة لم تكن تخص شعبا في مواجهة الشعوب الأخرى، ولم تكن أيضا لتستثني أيا من الشعوب. فقد أوصى المسيح تلاميذه بأن:

"اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم، وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس"(٣٥).

وأوصى أيضا بأن يكرر باسمه بالتوبة ومغفرة الخطايا لجميع الأمم مبتدئا بأورشليم (٣٦). والدعوة المسيحية لكل الأمم كانت تحمل معنى واضحا مختلفا تماما عن مضامين الفكرة اليهودية ألا وهي فكرة الحياة الأبدية التي يجد الإنسان جزاءه فيها. فالانجيل ينص:

"لأنه هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنه الوحيد لكي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكون له الحياة الأبدية. لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم بل ليخلص به العالم. الذي يؤمن به لا يدان والذي لا يؤمن قد دين لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد (٣٧).

إذا جاز لنا أن نترجم هذا الحديث فان من الممكن القول إن المسيح أتى بميثاق جديد يتكون من عنصر الإيمان مقابل الخلود في حياة أبدية. يفوز من يؤمن بالحياة الآخرة، وأما الذي لا يؤمن فيخسرها. ولهذا يقول المسيح:

"الحق الحق أقول لكم إن من يسمع كلامي ويؤمن بالذي أرسلني فله حياة أبدية ولا يأتي إلى دينونة بل قل انتقل من الموت إلى الحياة" (٣٨). "فيخرج الذين عملوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة" (٣٩).

وحاول المسيح أن يعبر عن هذا بكلمات لها انعكاسات مادية فقال:

أنا هو خبز الحياة. من يقبل إلي فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبدا" (٤٠).

المسيحية لم تأت فقط بعهد جديد وإنما أوضحت في مناسبات كثيرة أن اليهود الذين كان من المفروض أن يحملوا العهد القديم ويفوا بمتطلبات الميثاق قد ضلوا الطريق وخرجوا عن التزاماتهم. فمن ناحية، الدعوة الأممية التي تعتقد المسيحية أنه كان على اليهودية أن تأخذها بالاعتبار لم تأخذ طريقها نحو التنفيذ. فالنص في إنجيل مرقس يقول عن السيد المسيح وهو يخاطب اليهود

"وكان يعلم قائلا لهم أليس مكتوبا بيتي بيت صلاة يدعى لجميع الأمم. وأنتم جعلتموه مغارة لصوص" (٤١).

ومن الجلي أن الإنجيل يتهم اليهود مرارا وتكرارا بتخليهم عن وصايا الرب وباتباع تقاليدهم ورغباتهم. فمثلا يقول المسيح للكهنة:

"يا مراؤون حسنا تنبأ عنكم إشعياء قائلا يقترب إلي هذا الشعب بفمه ويكرمني بشفتيه وأما قلبه فيبتعد عني بعيدا. وباطلا يعبدونني وهم يعلمون تعاليم هي وصايا الناس" (٤٢).

المسيح يتهمهم بأنهم لا يحبون الله وإنما يحبون لذة الحياة ومتاعها:

"ولكني قد عرفتكم أن ليس لكم محبة الله في أنفسكم ... كيف تقدرون أن تؤمنوا وأنتم تقبلون مجدا بعضكم من بعض والمجد الذي من الإله الواحد لستم تطلبونه" (٤٣).

وقد أوضح المسيح للفريسيين الذين كانوا يجادلونه أن النقاء الداخلي للإنسان هو الأهم، أما المظاهر الخارجية فلا أهمية لها. وخاطبهم قائلا:

"بل أعطوا ما عندكم صدقة فهونا يكون كل شيء نقيا لكم. ولكن ويل لكم أيها الفريسيون لأنكم تعشرون النعنع والسذاب وكل بقل وتتجاوزون عن الحق ومحبة الله" (٤٤).

وعندما تدخل الناموسيون بسبب توبيخ المسيح للفريسيين قائلين إن التوبيخ يمسهم أجابهم المسيح:

"ويل لكم أيها الناموسيون لأنكم تحملون الناس أحمالا عسرة الحمل ... ويل لكم أيها الناموسيون لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة. ما دخلتم أنتم والداخلون منعتوهم"(٤٥).

والأمر ليس مختلفا بصورة جذرية بالنسبة الى القرآن. فالقرآن يقر صراحة بأن الله قد فضل بني إسرائيل على الشعوب الأخرى. ويكرر القرآن الآية التالية مرتين:

"يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين" (٤٦).

وهذا التفضيل كان مرتبطا بعهد، إذ تنص الآية:

"يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون" (٤٧).

أي أن الله قد أقام عهدا مع بني إسرائيل وأنه فرض عليهم التزامات يعتبر التقيد بها شرطا لكي يفي الله بعهده معهم. والقرآن لم يترك هذا العهد مبهما بل أوضحه كالتالي:

"ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم

الله قرضا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل" (٤٨).

يرتبط الميثاق، حسب القرآن، بالتمسك بقواعد الإيمان بالله والتي ترتكز على أداء الشعائر الدينية ودعم الأنبياء والعمل بالمعروف. وإذا التزم بنو إسرائيل بهذه القواعد فان الله يكون معهم ويجزيهم في الحياة الآخرة وذلك بجنة النعيم. بمعنى أن الميثاق لم يكن لأنهم عبرانيون ولكن لأنهم حملة رسالة سماوية، وتنفيذ عهد الله مرتبط بتنفيذ بني إسرائيل لما هو مطلوب منهم.

حتى يكون بنو إسرائيل على بينة فان الله قد أرسل الرسل وأوحى بالكتب التي توضح قواعد الإيمان ومستلزماته. تقول الآية:

"ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين" (٤٩).

ومن حيث أن بني إسرائيل حملوا الرسالة في مواجهة الظلم والوثنية فان الله أيدهم وساعدهم. فهو قد أنجاهم، على سبيل المثال، من عدوهم وأنزل عليهم المن والسلوى (٥٠). ومن ثم

"وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون" (٥١).

ونتيجة لصبر بني إسرائيل على ما عانوه فان الله أدخلهم الأرض المباركة مشرقها ومغربها.

ترتبط الامتيازات التي حصل عليها بنو إسرائيل بعنصر الإيمان والالتزام بالتعاليم السماوية. أي أنها ليست امتيازات ممنوحة بغض النظر عما يفعلونه.

ولهذا فان القرآن يوضح انتهاء موقع الأفضلية مع ابتعاد بني إسرائيل عن التعاليم الحقة. وهناك إقرار قرآني بأن حملة التوراة لم يعودوا طائعين، وذلك بقوله:

"من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا..." (٥٢)

أي أن بني إسرائيل لم يكونوا على جهالة، بل كانوا يعرفون ويسمعون، لكن منهم من كان يصر على العصيان. ولهذا فان القرآن يتحداهم حول ما إذا كانوا بالفعل مؤمنين بالله أو موالين له:

"قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين" (٥٣).

وبذلك لم يعد بنو إسرائيل مميزين عند الله عن بقية الناس والشعوب، بل هم كالآخرين الذين لا يؤمنون بالله ولا يعملون حسب تعاليمه.

لا يقف القرآن عند حد الإقرار بانتهاء مفعولية ميثاق بني إسرائيل مع الله، بل يشن عليهم هجوما عنيفا لأنهم كانوا مثلا سيئا حيث يقول:

"مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين" (٥٤).

لم يقم بنو إسرائيل بواجبهم، وتكليفهم بحمل الرسالة السماوية المتمثلة بالتوراة لم يؤد في النهاية إلى أية نتيجة لأنهم لم يستفيدوا منها ولم يفيدوا أحدا. ولم يكن حملهم لها سوى حمل كتاب كثقل وليس كعلم أو معرفة. وبعد هذه النتيجة المفجعة جاء المسيح ليرد بني إسرائيل إلى رشدهم ويعيدهم إلى عبادة الله. إذ يقول القرآن:

"وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار" (٥٥).

لكنهم أيضا لم يستمعوا إليه وأصروا على الاستمرار في ظلمهم. فانقلب الميثاق بالتالي إلى ضده. فبعد أن كان ميثاق دعم وحماية أصبح وعدا متميزا بغضب من الله والذل. فيقول:

"وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون" (٥٦).

وبسبب معاصيهم وخذلانهم الأنبياء وقتلهم لهم أصبحت إرادة الله هي أن يصيب بني إسرائيل المهانة والذلة في أي مكان حلوا وفي كل زمان (٥٧).

مع هذا التوضيح لما آلت إليه أمور الإيمان لدى بني إسرائيل، يعلن القرآن أن الرسالة السماوية ليست مقتصرة على شعب من الشعوب، وعهد الله ليس حكرا على قوم دون قوم. فقد جاء محمد عليه السلام ليبلغ الرسالة إلى الناس كافة دونما تمييز. فيقول القرآن مخاطبا إياه

"إنا أرسلناك بشيرا ونذيرا" و "أرسلناك للناس كافة"

المؤمنون عبارة عن أمة وهي خير الأمم، وبسبب إيمانها فقد وعدت وعدا على مستويين: المستوى الأول يخص الأمة وهو دنيوي، والآخر يخص الفرد وهو أخروي. وعدت الأمة الإسلامية بنصر الله ودعمه في مواجهة الملمات والأعداء (٥٨)، ووعد الفرد المؤمن بالجنة في الحياة الآخرة (٥٩). لكن الوعد مقترن بالعمل سواء على مستوى الفرد أو الأمة. على الفرد أن يطبق أحكام الله من أجل المساهمة في بناء الأمة والوفاء بالتزاماته الشعائرية، وعلى الأمة أن تجاهد وتكد وتتعب (٦٠)، لأن تاييد الله لا يناله القوم الكسالى والمتراخون.

لكن هذا الوعد لا يعني أن المسلمين كأمة أو كأفراد لن يلاقوا الصعاب ولن تحل بهم المصائب والمعاناة. إنهم لا يختلفون في ذلك عن الشعوب والأمم، بل هم أشد ابتلاء وأكثر عرضة لاختبار الإرادة والرغبة في العمل (٦١). بمعنى أن الإيمان لا يعني الاسترخاء، بل يشكل حافزا للمزيد من العمل والعطاء. وأمة الإسلام بأي حال من الأحوال لا يجوز لها أن تظلم الشعوب الأخرى أو أن تنتقص حقوق الأفراد غير المسلمين.

٢- حدود مملكة العبرانيين

من الواضح أن ميثاق الرب مع العبرانيين يتضمن تخصيص قطعه من الارض يسكن فيها العبرانيون وتكون ملكهم يتصرفون بها كما يشاؤون. ويبدو من التوراة أن الرب حدد هذه القطعة بحيث يصبح لزاما على العبرانيين العمل على امتلاكها وحفظها في أيديهم. ولم يترك الرب المسألة هلامية أو قابلة للتفسير أو التأويل، بل جعل العبرانيين مقيدين ومجبرين على الالتزام بتنفيذ اوامره.

وقطعة الأرض التي من المفروض أن الرب قطعها لبني إسرائيل لها حدود على ثلاثة مستويات. ينحصر المستوى الأول بأرض كنعان، ويمتد المستوى الثاني إلى نهر الفرات، بينما يستمد المستوى الثالث مقوماته من حدود المملكة التي أقامها داود. وعلى المستوى الأول، حدد الرب أرض كنعان التي وعد العبرانيين بدخولها وامتلاكها.

تكون حدودها كما أمر الرب من "ناحية الجنوب من برية صين على جانب أدوم ويكون لكم تخم الجنوب من طرف بحر الملح إلى الشرق ويدور لكم التخم من جنوب عقبت عقريم ويعبر إلى صين وتكون مخارجه من جنوب قادش برنيغ ويخرج إلى حصر أدار ويعبر إلى عصمون. ثم يدور التخم من عصمون إلى وادي مصر وتكون مخارجه عند البحر. وأما تخم الغرب فيكون البحر الكبير لكم تخما. هذا يكون لكم تخم الغرب. وهذا يكون لكم تخم الشمال. من البحر الكبير

ترسمون لكم إلى جبل هور. ومن جبل هور ترسمون إلى مدخل حماة وتكون مخارج التخم صدد. ثم يخرج التخم إلى زفرون وتكون مخارجه عند حصر عينان هذا يكون لكم تخم الشمال. وترسمون لكم تخما إلى الشرق من حصر عينان إلى شفام. وينحدر التخم من شفام إلى ربلة شرقي عين. ثم ينحدر التخم ويمر جانب بحر كنارة إلى الشرق. ثم ينحدر التخم إلى الأردن وتكون مخارجه عند بحر الملح. هذه تكون لكم الأرض بتخومها حواليها" (٦٢).

تعود التوراة ثانية إلى هذه المنطقة الجغرافية لكي تقسمها بين أسباط إسرائيل. فحزقيال في إصحاحيه السابع والاربعين والثامن والاربعين يوزع هذه الأراضي مبينا تخوم كل قطعة على حدة.

أما على المستوى الثاني فان الرب يوسع حدود الأرض التي اقتطعها للعبرانيين قائلا:

> "كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم. من البرية ولبنان. من النهر نهر الفرات إلى البحر الغربي يكون تخمكم" (٦٣).

وقد يثار هنا خلاف حول ما يعنيه تعبير وادي مصر. فمن المعروف أن وادي مصر هو وادي النيل، إلا أن الخرائط التي توضح تصور التوراة تشير إلى واد في سيناء يصب في البحر المتوسط بالقرب من العريش. ومعنى ذلك حسب هذه الخرائط أن حدود أرض كنعان تشمل جزءا من سيناء.

ويكرر الرب مثل هذا التحديد في حديثه مع يشوع فيقول:

> "كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيناه كما كلمت موسى. من البرية ولبنان هذا إلى النهر الكبير نهر الفرات جميع أرض الحثيين وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم" (٦٤).

وهذا تحديد أوسع من سابقيه حيث أنه يشمل أرض شمالي حماة وإلى الشمال الشرقي منها. أي أنه لا يترك من سورية السياسية القائمة حاليا إلا جزءا بسيطا يقع إلى الشمال الشرقي من الضفة الأخرى لنهر الفرات.

ومن الملاحظ أن هذا التحديد الثاني يشمل كل مصادر المياه الرئيسية في بلاد الشام وهي أنهار الفرات والعاصي والليطاني والأردن، فضلا عن مصادر مياه فرعية أخرى. ويشمل أيضا معظم الأرض الخصبة الصالحة للزراعة خاصة منطقة الأمطار الممتدة على طول الساحل السوري الطبيعي وبعرض لا يستهان به ومنطقة سهل حوران.

على المستوى الثالث، أضافت فتوحات داود أفاقا أخرى الى ارض كنعان إلا أنها بقيت ضمن المستوى الثاني الذي يمتد بين نهر الفرات والبحر المتوسط. فداود احتل جزءا كبيرا من شرقي الأردن حتى حدود مدينة ربة عمون. واحتل منطقتين واسعتين شمالي المدينة وجنوبيها. ولم تكن هذه القطع مشمولة في أرض كنعان كما حددها الرب، إلا أنها أصبحت تعرف كجزء من مملكة العبرانيين.

أما القرآن والانجيل فلم يوردا شيئا عن هذه المسألة. فالقرآن لا يحدد الأرض التي أورثها الله بني إسرائيل كملجأ لهم. وهو يكتفي، كما أشرت سابقا، بذكر الأرض المباركة. وتقول بعض التفسيرات إن الأرض المباركة هي بلاد الشام. أما الإنجيل فلم يذكر ارضا خصصها الله لشعب دون أخر (٦٥).

٣- القدس

اكتسب الفكر العبري الذي عبرت عنه التوراة معنى مؤسسيا في عهد كل من داود وسليمان. فبعد أن كانت الأفكار الواردة مكتسبة طابع الالزام الفردي المرتكز على الايمان، وبعد أن كان المجتمع مجزأ إلى قبائل متعددة يحكمها رؤساء عرضة للاختلاف فيما بينهم، عمل داود على مركزة السلطة وجمعها في يده.

وقام بالفتوحات وتوسيع مملكته ثم اتخذ من أورشليم (المعروفة إسلاميا بالقدس) عاصمة لها.

كان لاتخاذه القدس (اورشليم) عاصمة للمملكة بعدا واسعا في الحياة السياسية لبني إسرائيل. فقد أصبحت المدينة المركز السياسي الأول الذي يتطلع اليه العبرانيون وينتظرون منه اتخاذ القرار والتوجيه. كان العبرانيون يأتمرون بأوامر العديد من زعماء القبائل الذين كانوا يختلفون ويتصارعون ويقتتلون، وبالتالي كان القرار السياسي موزعا بين عدد من مراكز القوى التي قد لا تحسن صنعه. وباثبات قدرته على الساحةالعسكرية، استطاع داود أن يبسط هيمنته وأن ينتزع من شيوخ القبائل سيطرتهم ويصبح الرجل الأقوى في المملكة.

ولد هذا الاجراء شعورا بالوحدة والتجانس لدى بني إسرائيل أكثر عمقا مما كان عليه سابقا. فالعاصمة عاصمة الجميع والقرار يسري على الجميع. فضلا عن أن ذلك أعطى فرصة لتبني الأفكار السياسية المطروحة في التوراة بصورة مركزية.

وبالاضافة الى كونها المركز السياسي الذي بدأ الناس يتطلعون عليه، جعل سليمان من أورشليم مركزا دينيا بعد أن بنى الهيكل. كمعبد للرب وتفنن في بنائه وجعل منه المركز الديني الأول في مملكته. وحيث أنه كان بيتا لله كسب صفة القدسية، فقد أصبح مهوى للحجيج الذين يريدون التعبد أو التكفير عن سيئاتهم. لقد رفع هذا الهيكل من مكانة اورشليم فجعلها مركز السلطتين السياسية والدينية اللتين على العبراني أن يحترمهما ويلتزم بقراراتهما، وبالتالي أصبحت المدينة القلب النابض الذي يتغنى به العبرانيون ويقدسونه ويحرصون على المحافظة عليه وعلى سلامته. شرفت التوراة أورشليم كثيرا بنصوص متعددة جدا خاصة في الأسفار التي كتبت بعد عهدي داود وسليمان. لقد تم تصوير المدينة على أنها مدينة الرب المقدسة وروح مملكة بني إسرائيل ورمزها وقيادتها وعنوانها. وقد قال فيها الرب

"افرحوا وابتهجوا إلى الأبد في ما أنا خالق. هأنذا خالق أورشليم بهجة وشعبها فرحا" (٦٦).

وورد في النصوص التوراتية

"وأنت يا ابن آدم فخذ لنفسك لبنة وضعها أمامك وارسم عليها مدينة أورشليم(٦٧).

أو

"يا ابن آدم اجعل وجهك نحو أورشليم وتكلم عن المقادس وتنبأ على أرض إسرائيل وقل لأرض إسرائيل هكذا قال الرب" (٦٨).

وورد أيضا

"على أسوارك يا اورشليم أقمت حرسا لا يسكتون كل النهار وكل الليل على الدوام. يا ذاكري الرب لا تسكتوا ولا تدعوه يسكت حتى يجعل أورشليم تسبيحة في الأرض" (٦٩).

في حوار لزكريا، أحد أنبياء بني إسرائيل كما تورد التوراة، مع أحد الملائكة، حدثه الملاك أنه ذاهب إلى أورشليم ليقيس

"كم عرضها وكم طولها ... وأنا يقول الرب أكون سور نار من حولها وأكون مجدا في وسطها" (٧٠).

وهناك وصف لحالة الذين يعتدون على أورشليم ينص على أن

"هذه تكون الضربة التي يضرب بها الرب كل الشعوب الذين تجندوا على

أورشليم. فلحمهم يذوب وهم واقفون على أقدامهم وعيونهم تذوب في أوقابها ولسانهم يذوب في فمهم" (٧١).

وتعج التوراة بتلك الترانيم التي تعظم القدس وتقربها لقلب العبراني. وإذا ما نظرنا إلى ما كتب إبان السبي الأشوري والبابلي، نجد أن هناك حنينا قويا لأورشليم وشوقا للرجوع اليها.

"كيف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب. كيف صارت كأرملة. العظيمة في الأمم. السيدة في البلدان صارت تحت الجزية. تبكي في الليل بكاء ودموعها على خديها. ليس لها معز من كل محبيها" (٧٢).

وأورشليم هي محط التنبؤات المبشرة بالخير والبركة، وهي مركز الطمأنينة والتقديس. ففي الأيام القادمة

"يكون غصن الرب بهاء ومجدا وثمر الأرض فخرا وزينة للناجين من إسرائيل. ويكون أن الذي يبقى في صهيون والذي يترك في أورشليم يسمى قدوسا. كل من كتب للحياة في أورشليم (٧٣).

تتحول أورشليم مع الأيام إلى مركز لكل الأمم مما يوحي بأن الأممية ستتولد في المستقبل، مما يشير إلى نوع من التحول المحتمل في النظرة العبرية الى الآخرين. فبعد كل التركيز على خصوصية العبرانيين تتحدث بعض الأسفار المتأخرة عن نوع من الأممية التي لم تأخذ مفهوما واضحا، لكنها تبقى إشارة هامة الى تطورات المستقبل خاصة إذا أخذنا بالاعتبار أن الأسفار المتأخرة تهتم بشكل واضح في التنبؤات حول المستقبل. فيقول سفر إرمياء:

"في ذلك الزمان يسمون أورشليم كرسي الرب ويجتمع إليها كل الأمم إلى إسم الرب إلى أورشليم" (٧٤).

وفي آخر الأيام يكون جبل البيت الذي هو أورشليم

"ثابتا في رأس الجبال ويرتفع فوق التلال وتجري إليه كل الأمم. وتسير شعوب كثيرة ويقولون هلم نصعد إلى جبل الرب إلى بيت إله يعقوب فيعلمنا من طرقه ونسلك في سبله لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم كلمة الرب. فيقضي بين الأمم وينصف لشعوب كثيرين فيطبعون سيوفهم سككا ورماحهم مناجل. لاترفع أمة على أمة سيفا ولا يتعلمون الحرب في ما بعد"(٧٥).

القدس بالنسبة الى المسيحية هي مركز الإيمان ونقطة الانطلاق نحو الأمم الأخرى. إنها ليست مجرد مدينة خاصة للتملك والأثرة، بل هي المدينة التي من المفروض أن تنطلق منها الدعوة الى الخلاص. ولهذا فان ضلالها يجرها إلى العقاب الذي يتمخض عن خراب. فالمسيح حاول أن يلمها وينشر فيها الإيمان بالله والعمل حسب وصاياه، لكنه عندما رأى الصعوبة في مهمته قال:

"يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا. هوذا بيتكم يترك لكم خرابا" (٧٦).

ونظرا لمقاومة اليهود له، خاطب المسيح المدينة قائلا:

"فانها ستأتي أيام ويحيط بك أعداؤك بمترسة ويحدقون بك ويحاصرونك من كل جهة.ويهدمونك وبنيك فيك ولا يتركون فيك حجرا على حجر لأنك لم تعرفي زمن افتقادك" (٧٧).

هذا الرأي المسيحي بشأن القدس لا ينسجم مع الفكرة اليهودية بأن الله يقوم على حماية المدينة وأن الملائكة تحرسها. وهي كغيرها من المدن التي تضل الطريق لا بد أن تواجه النكبات والقلاقل، وكذلك أهلها. فهم ليسوا محميين أو معصومين عن المصائب والملمات. فالمسيح يخاطبهم قائلا:

"يا بنات أورشليم لا تبكين علي بل ابكين على أنفسكن وعلى أولادكن لأنه هوذا أيام تأتي يقولون فيها طوبى للعواقر والبطون التي لم تلد والثدي الذي لم يرضع" (٧٨).

المدينة تبقى مقدسة، وقد اختار المسيح حسب الأناجيل الأربعة أن يبذل نفسه فيها وذلك لكي يخلص العالم مبتدئا بها. لكن المسيحية لا تتغنى بالقدس وكأنها هي الإيمان نفسه، وهي لا تحرص عليها بمعزل عن الإيمان. فالمدينة مرتبطة بالفكرة وبالتمسك عمليا بها، وليست مرتبطة بذكريات أو بشعب معين. إنها المدينة التي من المفروض أن تشع الإيمان إلى أرجاء الأرض دون أن تكون حكرا على قوم دون غيرهم.

أما في القرآن فان القدس لم تذكر إلا من خلال الإشارة إلى المسجد الأقصى، إذ تقول الآية:

"سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله" (٧٩).

لكن الأحاديث النبوية حول مكانة القدس ليست قليلة. لكن هذا التقديس لا يعني التمليك بل يعني أنها مركز الإيمان وملتقى الأنبياء. وبما أن المؤمنين هم الذين يسلمون أمرهم لله، فان المدينة هي مدينة إسلامية. وحسب ما هو معروف إسلاميا، فان عمر بن الخطاب في وثيقته حول المدينة عقب فتحها أقر بحرية الآخرين من غير المسلمين في البقاء في المدينة وممارسة نشاطاتهم الدينية والدنيوية إلا اليهود (٨٠). فقد نصت الوثيقة على أن ليس لليهود حق في البقاء فيها وذلك تمشيا مع رؤية الإسلام لهم بأنهم قتلة الأنبياء وخارجون عن طاعة الله.

٤- العلاقة مع الآخرين

إن العلاقة مع الآخرين تأخذ علاقة العبرانيين مع غير العبرانيين، كما تصورها التوراة، ثلاثة مستويات: أبناء إبراهيم من هاجر، والكنعانيين، والشعوب الاخرى. تتميز هذه العلاقة بالتحديد بنظرة فوقية حيث يعتبر العبرانيون أنفسهم شعب الله المختار والمميز عن الشعوب الأخرى التي لم يعبر الرب عن رغبته في أن يكون الها لها. فالشعوب الأخرى أقل منزلة واحتراما وخارجة عن الاطار الرباني الذي يرعى بني إسرائيل في تجوالهم وحلهم وترحالهم وبيوتهم. وجاء تحديد علاقة العبرانيين مع هذه الشعوب لتكريس الاعتقاد بأن العالم يقسم إلى شعبين: شعب له الله ونعمه وشعوب أخرى ذات وحشية وجلافة.

من ناحية أبناء إبراهيم من هاجر هناك نصوص واضحة تحرمهم المنزلة التي حظي بها أبناء إبراهيم من زوجته الثانية سارة. فهاجر، كما تصورها التوراة، لم تكن إلا جارية لدى سارة وقد أمرها ملاك الرب بأن تبقى كذلك عندما حاولت الهرب من خلال محاورة بينهما

> "يا هاجر من أين أتيت وإلى أين تذهبين. فقالت أنا هاربة من وجه مولاتي ساراي. فقال لها ملاك الرب إرجعي إلى مولاتك واخضعي تحت يديها" (٨١).

ويبدو من سياق الحديث في التوراة أن إبراهيم غضب عندما طلبت سارة من إبراهيم طرد هاجر وابنها اسماعيل لأنه كان يلعب. إلا أن الرب لم يجد مبررا لهذا الغضب قائلا:

> "لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك. في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها. لأنه باسحاق يدعى لك نسل."

وكما أشرت سابقا، هناك محاولة لتجاهل إسماعيل كابن لابراهيم. أمر الرب إبراهيم أن يأخذ إسحق إلى أحد الجبال مخاطبا

"خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحق واذهب ..."

وهناك حيث أمر الرب إبراهيم بذبح إسحق افتدى إسحق بكبش لأن الله علم أن إبراهيم يخاف الله بدليل أنه لم يمسك وحيده عنه وهم بذبحه. وفضلا عن أن قصة الكبش المعروفة قد جيرت لاسحق فان هناك تجاهلا لوجود ولد آخر لابراهيم وذلك كما اتضح في فصل سابق.

إلا أن التوراة لا تتجاهل إسماعيل باستمرار، لكن منزلته تبقى متدنية. ففي سياق الحديث حول إسحق وتعظيمه يأتي في النهاية ذكر لاسماعيل بأن الله سيجعل منه، ابن الجارية، أمة لأنه من نسل إبراهيم لكنه لا يذكر ما إذا كانت ستكون هذه الامة عظيمة كالأمة التي ينجبها إسحق (٨٢). حتى أن ميلاد إسماعيل، كما يتم تصويره، لم يكن من أجل الخير والبركة وإنما كان كنوع من العطف على هاجر التي اذلت كثيرا. فقد قال لها ملاك الرب إنها ستلد ولدا تدعوه إسماعيل "وإنه يكون انسانا وحشيا. يده على كل واحد ويد كل واحد عليه" (٨٣). أي أن هذا الولد شرير ولا يصل مرتبة أخيه من أبيه الذي يتلقى أوامر الرب الهه.

أما من ناحية الكنعانيين، فان وصايا الأنبياء، كما تذكر التوراة، تحظر التعامل معهم أو الرأفة بهم. فقد أوصى إبراهيم، بعدما تقدمت به السن، عبده كبير بيته ألا يأخذ لابنه زوجة من بنات كنعان (٨٤). وكذلك فعل إسحق الذي أوصى ابنه يعقوب بألا يتخذ لنفسه زوجة من بنات كنعان لأنهن شريرات (٨٥). إنهن لا يعبدن اله بني إسرائيل وبالتالي فهن غير صالحات. لكن التوراة، على أية حال، لا تذكر لماذا لا يعرف الرب نفسه للكنعانيين الذين من الممكن أن يؤمنوا.

حث الرب بني إسرائيل على ان تكون علاقتهم مع سكان أرض كنعان علاقة عداء. فهو يحضهم، في حالة احتلال أرض الميعاد، على تهديم مذابح ساكنيها وتكسير أنصابهم وحرق تماثيلهم. وذلك لأن بني إسرائيل شعب مقدس للرب الههم (٨٦). وقد رأينا سالفا كيف أمر الرب بني إسرائيل بقتل كل من يجدونه

أمامهم في المدن التي يحتلونها حتى الاطفال والرضع. وبناء على هذه الأوامر، فقد قتل العبرانيون كل رجل وامرأة وطفل وشيخ عند احتلالهم أريحا. ولم يوفروا حتى البقر والغنم والحمير وألحقوا على البيوت وأحرقوها (٨٧). وهذا ما فعله يشوع أيضا بأهل عاي. فقد قتل كل انسان كان يسكن المدينة وأحال المدينة خرابا ومثل بجثة ملكها (٨٨).

والشعوب الأخرى ليست أحسن حالا من حال الكنعانيين. فلا يجوز لهذه الشعوب أن تكون على قدم المساواة مع العبرانيين وحتى لا يجوز لها أن تعيش بأمن واطمئنان. فالرب يؤكد لموسى أنه سيدفع سكان الأرض الى أيدي العبرانيين. وشرط الرب على ذلك بألا "يقطع مع الشعوب الأخرى أو آلهتهم عهدا"(٨٩). إن مكانة هذه الشعوب إذا سمح لها بالبقاء أن تكون في خدمة بني إسرائيل وطاعتهم. فكما هو منصوص

> "يقف الأجانب يرعون غنمكم ويكون بنو الغريب حراثيكم وكراميكم. أما أنتم فتدعون كهنة الرب تسمون خدام الهنا. تأكلون ثروة الأمم وعلى مجدهم تتأمرون"(٩٠).

حدد الرب علاقة العبرانيين مع الشعوب الأخرى كالأموريين والكنعانيين والحثيين قائلا:

> "لا تسجد لآلهتهم ولا تعبدها ولا تعمل كأعمالهم. بل تبيدهم وتكسر أنصابهم"(٩١).

إنه لا يجوز أن يقوم معهم عهد لأنهم غير مقدسين ولا يصلون إلى منزلة بني إسرائيل، صفوة الأمم وخيرتها وشعب الله. وما دام الأمر كذلك، فان الرب سيبقى في نصرة بني إسرائيل ورعايتهم.

إلا أن الرب يحذر

"ولكن إذا رجعتم ولصقتم ببقية هؤلاء الشعوب وأولئك الباقين معكم وصاهرتموهم ودخلتم إليهم وهم إليكم فاعلموا يقينا أن الرب الهكم لا يعود يطرد أولئك الشعوب من أمامكم فيكونوا لكم فخا وشركا وسوطا على جوانبكم وشوكا في أعينكم حتى تبيدوا عن تلك الأرض الصالحة التي أعطاكم إياها الرب الهكم"(٩٢).

والرب يعارض سكنى هؤلاء في أرض بني إسرائيل حتى لا يكونوا سببا في إغواء شعب الرب وتحويله عن عبادته (٩٣).

ليس من الصعب على قارىء التوراة أن يدرك أن الأمم فئتان : فئة العبرانيين التي لها رب، وفئة بقية الشعوب التي ليس لها رب. وظيفة الأولى هي أن تطيع الرب فيفتح عليها أبواب النعم الدنيوية وأسباب الرخاء، ووظيفة الثانية ذات شقين: الأول أن تكون هدف انتصارات العبرانيين عندما يكونون في طاعة الرب فيتلذذون بنشوة الانتصار، والثاني أنها أداة الله لمعاقبة العبرانيين عندما يكونون في معصية الله. وفي كلتا الحالتين فان الأمم الأخرى عبارة عن مطية إما للعبرانيين أو للرب الذي يريد معاقبة شعبه. وما عدا ذلك لا يبدو في التوراة أن للأمم وظيفة أخرى يمكن أن تكون سامية.

ولذلك فان التاريخ هو تاريخ بني إسرائيل. الأحداث تدور فقط في دائرة أصحاب التوراة لأنها التعبير الحقيقي عن إرادة الرب. التاريخ هو إرادة الله المتجلية، وبما أن هذه الإرادة لا تهتم بالأمم الأخرى إلا بمقدار ما يراد به أن يحدث للعبرانيين أو معهم، فانه لا تاريخ إلا تاريخ بني إسرائيل.

والتوراة، في مختلف أسفارها وعلى امتداد تأريخها، تميز العبرانيين عن الشعوب الأخرى وتضفي عليهم سمة التفوق. وهذه النظرة لا تمس فقط الشعوب والأمم بل تمس الذات الالهية أيضا. فعلى الرغم من أن التوراة تعظم الرب وتجله، فانها لا

ترفعه كثيرا عن مستوى البشر الذين هم العبرانيون. فالرب يحزن ويندم ويتأسف ويغار ويشعر بالمهانة. ومن المحتمل أن تكون هذه النظرة تجاه الرب بدافع التخفيض من منزلة الذات الإلهية ليصبح لدى بني إسرائيل حرية المناورة في تطبيق وصايا الرب واتباع أوامره، أو بدافع رفع منزلة بني إسرائيل بحيث يكادون يصلون إلى منزلة الرب. وبما أن التوراة تصف بني إسرائيل بشعب الله المختار الذين يعقد معهم العقود والمواثيق فليس من المستبعد أن تقترب منزلتهم من منزلة الذات الإلهية ويصبح التعامل بينهم وبين الرب تعامل ندين لكل منهما كيانه المستقل.

والنبي ليس أفضل حالا من الرب. فالأنبياء موصوفون بصفات سيئة جدا وتنسب إليهم أعمال وضيعة لا تليق بتاتا بمفهوم النبوة. فمثلا نوح يشرب الخمر حتى السكر ويزني ببناته، وداود يقترف إثما عظيما مع امرأة الحثي، وموسى سفاح، وسليمان مغرم بالنساء الزوجات منهن والخليلات. ولهذا نلاحظ في التوراة تطاول بني إسرائيل على الأنبياء وتمردهم على تعاليمهم. وقد وقع عدد من الأنبياء تحت أيدي الشعب المختار ولاقوا منهم العذاب والتنكيل.

الروح المسيحية والإسلامية في التعامل مع الآخرين لا تتمشى مع الروح التوراتية. الأناجيل لا تتحدث عن شعب متميز ومتفوق كما تتحدث التوراة. وهي لا تطلب من أتباع المسيح أن يكونوا عادلين مع الآخرين فحسب، بل تطلب منهم الخضوع ورد الحسنى بأكثر منها ورد السيئة بالحسنى .والمسيحي لا يتميز إلا في الحياة الآخرة حيث أن الجنة مكافأة من آمن وعمل حسب تعاليم المسيح، أما في الحياة الدنيا فلا توجد له امتيازات مادية خاصة أو مكافآت على حساب الآخرين. والشعوب الأخرى حتى اليهود مؤهلة للدعوة وللإيمان بالمسيح، وهي لا تختلف في مكانتها عن بعضها البعض. فلا توجد حدود قومية للدعوة المسيحية.

يفتح الإسلام أبوابه أمام جميع الشعوب ولا يقيم معيارا احتكاريا على الايمان بالله ورعايته للناس. وفي التعامل الدنيوي لا توجد نعم ربانية مادية خاصة

بالمسلمين، ولا حق لهم في انتقاص حقوق الآخرين. وميزان العدالة في الإسلام مقدس، وجميع الناس متساوون أمام القانون المنبثق عن الشريعة.وإن حكمت بين الناس فاحكم بالعدل. وإذا كان الإيمان والتقوى يميزان المسلم عن غير المسلم فان هذا التمييز بدون آثار سلبية على حقوق غير المسلمين، ولا يحمل معه امتيازات مادية، ذلك لأن المسلم ينتظر الجزاء في الدار الآخرة. والايمان ليس قوميا والذات الإلهية لا تعرف قوميا ولا تلغي ربوبيتها لكل شعوب الأرض وكل ما في الكون.

٥- الانعكاسات السياسية للميثاق

إذا كنا سنترجم ميثاق الرب مع بني إسرائيل سياسيا على ضوء الوقت الراهن والصراع الدائر في منطقة الشرق الأوسط، فان من الممكن استنتاج ما يلي :

أولا: يعيش اليهود الآن فترة مد من حيث أن الرب يقوم برعايتهم ونصرهم على أعدائهم. أي أنهم يتقيدون الآن بتعاليم الرب ووصاياه ولذلك ينفذ الله وعده لهم بأن يهزم أعداءهم أمامهم ويسخرهم لخدمتهم. العرب الآن منهزمون أمام اليهود في فلسطين، والأسواق العربية مفتوحة أمام المنتجات الاسرائيلية، والفلسطينيون يعملون في مزارعهم ومصانعهم ويبنون لهم المستوطنات.

وحتى نتأكد من أن الرب يرعى بني إسرائيل الآن فان من المهم دراسة سلوك الناس وكذلك الدولة، ومقارنة ذلك مع ما هو منصوص عليه في التوراة. فاذا تطابق هذا السلوك كله أو جزء مهم منه مع وصايا الرب وتعاليمه فان الرب يكون راعيا وحافظا، وإذا لم يكن كذلك فان نظرية الرعاية الإلهية تصبح موضع شك.

ثانيا: إسرائيل لم تكمل سيطرتها بعد على أرض الميعاد. فأرض الميعاد أكبر بكثير من فلسطين. وهي تشمل جزءا من سيناء حتى العريش والمساحة الأكبر من منطقة الجبل حتى دون طرابلس وجنوب غرب سوريا. فحتى يتم وعد الرب فانه لا بد لاسرائيل أن تتمدد وتتوسع. حدود مملكة إسرائيل لم تكتمل بعد. ومن واجب

بني إسرائيل، حسب وصايا الرب، أن يوسعوها حتى تبلغ نصابها، وربما تعمل على مد الحدود إلى ما هو أبعد من ذلك لتصل إلى الحدود المطبوعة على العملة المعدنية من فئة العشر أغورات.

ثالثا: اليهود هم السادة والشعوب الأخرى مسخرة. لهذا يجب أن تتوفر دائما أسباب التعامل الفوقي مع الأمم الأخرى. فبالاضافة إلى الدواعي الأمنية، فان على إسرائيل أن تبقى قوية حتى لا تضطر في وقت ما إلى التعامل على قدم المساواة مع الآخرين حتى في زمن السلم. فاذا وقعت معاهدات سلام بين حكومات العرب وإسرائيل، فان إسرائيل لن تتخلى عن تطوير أسلحتها وجيشها لتبقى هي الأقوى في المنطقة ولتنافس دول العالم. فالضعف يقلل من شأنها ويجعلها متساوية مع الآخرين وهو الشيء المرفوض توراتيا.

مسألة القوة هذه لا تنطبق في مواجهة العرب فحسب بل في مواجهة العالم أجمع بما فيه الولايات المتحدة. وعلى الرغم من أن أمريكا تقدم كل ما يلزم في مختلف المجالات إلا أن إسرائيل تسعى حثيثا إلى تحقيق استقلالها العسكري الذي يحررها من الضغوط الأمريكية المحتملة. إن عقلية التفوق عقلية شك وعدم اطمئنان الى الآخرين. وإسرائيل لا يمكن أن تطمئن الى اوروبا أو الولايات المتحدة بغض النظر عن كل ما تقدمه هذه الدول من دعم ومساعدات. وعليه فان التطوير العسكري الذي يعتبر المصدر الأول للقوة يحظى بأولوية عسكرية في إسرائيل.

رابعا: التوراة تعتبر اليهود أهل الحكمة وينبوع المعرفة مما يشكل سببا قويا للشعور بالتميز عن الأمم الأخرى. ولهذا نجد زعماء إسرائيل من رؤساء دولة أو وزارة أو وزراء أو منظرين يتباهون بالعقلية الحكيمة التي ورثوها عن الأجداد وتناقلوها عبر الأجيال. الأمم تستلهم منهم ومن المفروض أن تتلقى منهم فتأتمر بأمرهم. ونحن نلاحظ ونعرف من خلال تجاربنا أن اليهودي ينظر إلى نفسه بصفته عملاق العلم والأدب، وينظر إلى الآخرين وخاصة العرب باحتقار وازدراء.

لدى اليهود في فلسطين قناعة بأننا متخلفون بالفطرة، وأن أي مقدار بسيط من الاحترام قد يقودنا إلى التمرد وطلب المزيد. وبما أننا في النظرة اليهودية، حسب ما علمتنا التجارب، من أصحاب النفوس المتدنية فاننا لا ننصاع إلا للغة القمع والعنف. وهذه هي نظرة السادة إلى العبيد، نظرة من يظنون في أنفسهم المعرفة والعلم تجاه أصحاب الجهل والتخلف.

وهذه العقلية لا تنجب سلاما ولا تفكر أصلا في السلام. ذلك أن السلام عبارة عن حالة من التعايش بين متكافئين، وما دام التكافؤ غير وارد فان التفكير في السلام غير وارد أيضا. وإذا حصل سلام بين غير متكافئين فانه سلام لا يمكن أن يدوم لأن المتفوق يبحث دائما عن امتيازات تفوقه.

خامسا: تحدد التوراة علاقة العبرانيين أو بني إسرائيل بالشعوب الأخرى، والتي تقوم على عدم القبول بسبب قدسية بني إسرائيل وعدم قدسية غيرهم. ولذلك فان مصير الشعب الذي يتغلغل بين العبرانيين يراوح بين ثلاثة احتمالات: الطرد أو القتل أو العمل في المصالح العبرانية. من الأفضل قتل الشعوب الأخرى حتى لا تعود ثانية إلى مضايقة بني إسرائيل، وإذا تعذر القتل فان الطرد يعتبر البديل الثاني، وإذا تعذر فلا مانع من تحويل الناس إلى عبيد أو، حسب لغة العصر، إلى كادحين في المزارع والمصانع.

قبل عام ١٩٤٨، عمد اليهود في فلسطين الى قتل عدد كبير من الفلسطينيين فنفذوا المجازر المختلفة في مختلف أرجاء فلسطين. وفي ذات الوقت عملت المجازر كآلية فعالة لطرد العدد الأكبر من الفلسطينيين. أما الباقون فقد بذلت جهود ضخمة لتحويلهم إلى عبيد يقومون بعملية الانتاج لصالح الذي يقمعهم. وإذا نظرنا إلى حال العرب في فلسطين المحتلة/٤٨ فاننا سنجد أنهم في أغلبهم يقضون حياتهم يلهثون وراء لقمة العيش دون أن يكون لديهم وقت للتفكير في الهموم العامة وحياة المشاركة.

وهكذا الأمر بالنسبة الى الأرض المحتلة/٦٧. الظروف الدولية لم تخدم إسرائيل عام ١٩٦٧ لتنفيذ المجازر، لكنها عملت على إشاعة الرعب من خلال أخبار غير صحيحة عن مجازر عامة وذلك لتشجيع الفلسطينيين على الهرب. وما دام القتل لم يحصل والطرد الجماعي لم ينجح إلا بصورة محدودة، فقد كان من الأفضل اتباع أسلوب الطرد التدريجي مع تحويل السكان إلى كادحين يبحثون عن لقمة العيش. وهذا ما يميز السياسة الإسرائيلية تجاه الشعب الفلسطيني داخل فلسطين.

تفسر هذه المسألة رفض إسرائيل التحاق الفلسطينيين الذين كانوا خارج فلسطين عشية حرب/٦٧ بأهاليهم في فلسطين.إنها تعمل على خلق دولة من المقدسين المتفوقين على جميع البشر مما يتناقض مع فتح المجال أمام زيادة أعداد الأعداء الذين سيؤثرون سلبيا على نسيج الشعب المقدس. وإذا حصل أن قام سلام مؤقت بين العرب وإسرائيل فان إسرائيل ستنتهز الفرصة وتقوم بتبني سياسات من شأنها تشجيع الفلسطينيين سواء داخل الأرض المحتلة/٤٨ أو المحتلة/٦٧ على الهجرة إلى الدول العربية. وبذلك تكون فرصة السلام ليس من أجل عودة الفلسطينيين إلى ديارهم، بل من أجل التسريع في خلق إسرائيل نقية من غير المقدسين.

سادسا: كانت التوراة بارعة في تحديدها أرض الميعاد من ناحية المياه. وكذلك كان الوعد بأن أرض العبرانيين من البحر الكبير إلى نهر الفرات. وهذه القطعة تشمل مخزن المياه في غور الأردن ومنابع أنهر الأردن واليرموك والليطاني والعاصي ومختلف الجداول والعيون في جبال لبنان الشرقية والغربية.

وبما أن المياه هي مياه إسرائيل، فان السياسة الإسرائيلية سعت الى انتزاع المياه من المزارعين العرب في غور الأردن، وهي تطالب سورية والأردن بالاتفاق معها بشأن مياه نهر اليرموك، وقد حولت مياه نهر الأردن دون اعتبار لمصالح الدول العربية، وهي مستمرة في نهب مياه الفلسطينيين، وحسب بعض التقارير فانها تقوم بنهب مياه نهر الليطاني. ومطالب إسرائيل وتوسعاتها المائية لن تتوقف بل

ستتمدد حسب تمدد حاجاتها المائية التي تزداد باستمرار سواء على مستوى الحاجات المنزلية أو الحاجات الزراعية والصناعية.

سابعا: الحرب الوقائية : من الخطأ أن يظن أحد وخاصة العرب، أن إسرائيل ستحافظ على ما تظن أنه التفوق والتميز من خلال قدراتها الدفاعية فقط، فلكي يبقى التفوق "نقيا" فان من الضروري أن تبقى هناك قوة هجومية شرسة قادرة على النيل من أية قوة قد يكون لها دور، ولو بعيد الاحتمال، في التأثير على القرار الإسرائيلي. ولهذا شنت حروبا وقائية وضربات سريعة لأهداف عسكرية عربية باعتبار أن هذه الأهداف قد تشكل تهديدا مستقبليا لمصالح إسرائيل أو لقدرتها على اتخاذ القرارات التي تراها مناسبة.

وحتى المملكة العربية السعودية وغيرها من الدول المتحالفة مع الادارة الامريكية، لم تترك لها حرية التسلح وتراكم القوة. فاسرائيل تعمل دائما على التأثير على القرار الأمريكي في بيع الأسلحة للدول العربية وبعض الدول الإسلامية خشية أن يستعمل هذا السلاح في المستقبل ضدها. وليس من المستبعد أن تقوم بضرب أهداف عسكرية في دول صديقة لأمريكا إذا أحست أن هذه الأهداف هامة من الناحية الإستراتيجية.

ثامنا: مؤتمر السلام: لم ترفض إسرائيل الجلوس مع العرب في مفاوضات مباشرة لأنها كانت دائما الأقوى والأقدر على فرض الحلول. لكن رفضها لمؤتمر السلام الدولي كان خشية أن تكون هناك "لا" ذات معنى وهي اللا السوفييتية. وبعد أن اتضح تحول السوفييت إلى نعم، قبلت بمؤتمر إقليمي لأنه من التوقع أن يكون مؤتمرا للمناورة داخل الطروحات الإسرائيلية وليس للمفاوضات. فالمفاوضات تعني جلوس نظيرين معا، أما المناورة داخل الطروحات الإسرائيلية فتضمن علو الكلمة الإسرائيلية وهيمنة إسرائيل على المؤتمر.

٦- الهوامش

١- التكوين، ٧: ١.
٢- التكوين، ٩: ٩-١١.
٣- التكوين، ٩: ١٣-١٦.
٤- التكوين، ٩: ١.
٥- التكوين، ١٢: ٢-٤.
٦- التكوين، ١٢: ٧.
٧- التكوين، ١٣: ١٤-١٦.
٨- التكوين، ١٥: ١٨-١٩.
٩- التكوين، ١٧: ٩-١٢.
١٠- التكوين، ١٧: ٢٠-٢١.
١١- التكوين، ٢٨: ١٣.
١٢- التكوين، ٢٨: ١٥.
١٣- الخروج، ٢: ٢٤.
١٤- الخروج، ٣: ٨.
١٥- الخروج، ٦: ٦-٧.
١٦- التثنية، ٧: ٦-٧.
١٧- الخروج، ١٩: ٥-٦.
١٨- عاموس، ١: ٩.
١٩- Sibley, Op. Cit., P. 18.
٢٠- اللاويين، ٢٦: ٦-٩.
٢١- اللاويين، ٢٦: ١٦-١٧.
٢٢- الملوك الأول، ٢: ٣-٤.
٢٣-اللاويين، ١٨: ٤.
٢٤- الملوك الأول، ٦: ١٣.
٢٥- التثنية، ٢٨: ٢٠-٢٤.
٢٦- الخروج، ٤: ٣-٨.
٢٧- الخروج، ١٤: ٢٦-٢٧.
٢٨- الخروج، ٧: ١٢.
٢٩- الخروج، ١٥: ٢٥.
٣٠- الخروج، ١٦: ٤.
٣١- القضاة، ٣: ٧-٨.
٣٢- صموئيل الثاني، ٢٤: ١٥.
٣٣- الملوك الثاني، ١٧: ٢٢.
٣٤- إرميا، ٣١: ٣١-٣٤.
٣٥- متى، ٣٨: ١٩.
٣٦- لوقا، ٢٤: ٤٧.
٣٧- يوحنا، ٣: ١٦-١٨.
٣٨- يوحنا، ٥: ٢٤.
٣٩- يوحنا، ٥-٣٠.
٤٠- يوحنا، ٦:٢٥.
٤١- مرقس، ١١-١٧.
٤٢- متى، ١٥: ٦-٩.
٤٣- يوحنا، ٥: ٤٢-٤٤.
٤٤- لوقا، ١١: ٣٧-٤٢.
٤٥- لوقا، ١١: ٤٥-٥٢.
٤٦- البقرة، ٤٧، ١٢٢.
٤٧- البقرة، ٤٠.
٤٨- المائدة، ١٢.

٤٩- الجاثية، ١٦.
٥٠- طه، ٨٠.
٥١- الأعراف، ١٣٧.
٥٢-النساء، ٤٦.
٥٣- الجمعة، ٦.
٥٤- الجمعة، ٥.
٥٥- المائدة، ٧٢.
٥٦- البقرة، ٦١.
٥٧- آل عمران، ١١٢.
٥٨- آل عمران، ١٦٠.
٥٩- الحج، ٥٦ ; لقمان، ٨.
٦٠- التوبة، ٤١ ; الصف، ١١.
٦١- العنكبوت، ٢.
٦٢- عدد، ٣٤: ١-١٢.
٦٣- تثنية، ١١-٢٤.
٦٤- يشوع، ١: ٤.
٦٥- تفسير الجلالين، ص ٢٢٠.
٦٦- إشعياء، ٦٥: ١٨.
٦٧- حزقيال، ٤: ١.
٦٨- حزقيال، ٢١: ١.
٦٩- إشعياء، ٦٢-٦.
٧٠- زكريا، ٢: ١-٢.
٧١- زكريا، ١٤: ١٢.
٧٢- مراثي إرميا، ١: ١-٢.
٧٣- إشعياء، ٤:٢-٣.
٧٤- إرمياء، ٣: ١٧.
٧٥- إشعياء، ٢: ٢-٤.
٧٦- متى، ٢٣: ٣٧-٣٨.
٧٧- لوقا، ١٩: ٤٢-٤٤.
٧٨- لوقا، ٢٣: ٢٨-٢٩.
٧٩- الاسراء، ١.
٨٠- عارف العارف، تاريخ مسجد الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى، القدس: مطبعة دار الأيتام، ص ٢٦.
٨١- تكوين، ١٥: ٩.
٨٢- تكوين، ٢١: ١٨.
٨٣- تكوين، ١٦: ١٢.
٨٤- تكوين، ٢٤: ٣.
٨٥- تكوين، ٢٨: ١.
٨٦- تثنية، ٧: ٦.
٨٧- يشوع، ٦: ٢١.
٨٨- يشوع، ٨: ٢٩.
٨٩- خروج، ٢٣: ٣٢.
٩٠- إشعياء، ٦١: ٥-٦.
٩١- خروج، ٢٣: ٢٤.
٩٢- يشوع، ٢٣: ١٢-١٣.
٩٣- خروج، ٢٣.

الخلاصة

يظهر من خلال الجدليات الواردة في هذا العمل أن هناك سمات عامة تميز كل واحد من الكتب السماوية. نقاط الإلتقاء حول بعض الأمور واردة، لكن هذا لا يشير إلى أن الكتب تحمل ذات الطابع. كل كتاب منها يتجه وجهته الخاصة، ولم يكن الالتقاء ضمن نظرية أو قاعدة فكرية واحدة، بل كان ضمن احتمالات الالتقاء غير القائم على ذات الفرضيات الأخلاقية أو التاريخية. والمنطلقات مختلفة رغم أن بعض الأوجه متشابهة.

من المهم أن نأخذ بعين الاعتبار أن أهل التوراة لا يعترفون بالإنجيل والقرآن ككتابين سماويين، ولو لم يكن ذلك لآمنوا بالدين اللاحق. وأهل الإنجيل لا يؤمنون بالقرآن رغم وجود أصوات مسيحية تقول إن القرآن كتاب سماوي. لكن المسيحيين يؤمنون بالعهد القديم ككتاب يعبر عن رسالة سماوية. أما المسلمون فيؤمنون بالتوراة والإنجيل، ولكن ليس الكتابان الموجودان حاليا باعتبار أنهما نسختان محرفتان عن الكتابين السماويين الأصليين، وهذه الاختلافات في النظرات المتبادلة تقوم على أسس عقائدية مختلفة. ولا يعنينا هنا البحث في كل هذه الأسس، لكننا نركز على تلك المتعلقة بموضوع هذا العمل.

١- القومية والاممية

التوراة تقيم دينا يهوديا خاصا بالعبرانيين أو بني إسرائيل. نصوصها واضحة ومتعددة ومتكررة خلال أغلب فصول الكتاب. وهناك فصل حدي بين شعب الله المختار وبين الشعوب الأخرى، والرسالة السماوية في مختلف النصوص تحدد نفسها بشعب الله المختار دون الشعوب الأخرى، وفي كثير من الأحيان تسم الشعوب الأخرى بصفات وأخلاق سيئة.

يعترض بعض الكتاب على هذا الرأي فيقولون بعكسه. فمثلا يقول كاتز إن اليهودية أممية، وأن الأممية لا تتناقض مع القومية اليهودية المطروحة دينيا. ولكي يدعم رأيه يقول إن هناك آية في التوراة تنص

"ألستم لي كبني الكوشيين يا بني إسرائيل يقول الرب. ألم أصعد إسرائيل من أرض مصر والفلسطينيين من كفتور والأراميين من قير" (١).

يأخذ الكاتب هذا المثل لكنه لا يكمل. ولو تابع لوجد أن النص يستطرد قائلا:

"هو ذا عينا السيد الرب على المملكة الخاطئة وأبيدها عن وجه الأرض غير أني لا أبيد بيت يعقوب تماما يقول الرب. لأنه هأنذا آمر فأغربل بيت إسرائيل بين جميع الأمم كما يغربل في الغربال وحبة لا تقع على الأرض" (٢).

ثم إن الكاتب يفهم بطريقة غريبة النص الوارد في عاموس والذي يقول:

"إياكم فقط عرفت من جميع قبائل الأرض لذلك أعاقبكم على جميع ذنوبكم"(٣).

فيفسره على بأن الرسالة السماوية الموجهة لليهود تنطوي على مسؤولية خاصة وليس على الاختيار الرباني (٤).

وفضلا عن النظرة القومية تجاه الفكرة الدينية، فان التوراة لا تقيم معيارا حاسما بين هذا الفرد وذاك، بل تتجه نحو التمييز بين ذرية وأخرى. والعقاب والثواب الشخصي ليس بارزا في التوراة، كما أن قضية الايمان الفردي لا تشكل محورا ولا يشار إليها كمسألة عقائدية تلقي بأهميتها على الفرد، لكن الذرية هي التي تنال الجزاء والعقاب دون تمييز بين هذا وذاك. فذرية إبراهيم مباركة وكذلك ذرية كل من إسحق ويعقوب بغض النظر عن التجاوزات الفردية التي قد تحصل هنا وهناك بين حين وآخر.

دعوة المسيح، كما أشرت، أممية وغير محصورة في قوم دون قوم. لقد وجه المسيح الدعوة الى جميع الناس والأمم ابتداء ببني إسرائيل. وبذل نفسه من أجل خلاص الجميع. والدعوة بصورة أساسية موجهة الى الفرد وذلك للتخلص من الشرور والآثام وتحرير الذات من الخطيئة. ولهذا فان الايمان بالله يعتبر الركيزة الأساسية في انطلاق الفرد نحو العمل حسب وصايا المسيح وتعاليمه.

كذلك كان الأمر بالنسبة الى القرآن ولكن بفارق هام وهو إقامة الأمة الإسلامية التي تعني بالشؤون الدنيوية والأخروية للفرد والجماعة. وهذه الأمة هي الأمة الحقة التي تملك مفتاح الحقيقة وتعمل حسبها. لكن الأمة ليست حكرا على قوم أو شعب معين، بل أبوابها مفتوحة أمام كل الأقوام والأفراد. ومن الجدير بالذكر أن القرآن لم يلغ الأقوام والشعوب لصالح الأمة، لكنه ألغى دورها في تحديد عقيدة الفرد وسلوكه المستند على أسسها ولهذا بقيت العائلة أو القوم تؤدي دورا اجتماعيا شكليا في أغلب الأحيان.

ورد في القرآن "وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم"(٥). بمعنى أن المؤمنين ينتمون إلى أقوام مختلفة وهذا يسهل إقامة العلاقات الاجتماعية بين الناس، لكن الدور الحاسم يبقى للتقوى وهي ميزان للتمييز بين هذا الفرد وذاك (وليس بين هذا القوم وذاك). ويبدو أحيانا أن العائلة تمارس بعض عناصر التقوى من حيث دعم الفرد ومساعدته على تحمل أعباء الحياة. الأمة الاسلامية تقوم على التكافل والتضامن، وأولى خطوات مساندة الفرد تبدأ بالأقرباء والجيران وأهل البلدة التي ينتمي إليها الفرد (٦). وقد خص القرآن الأقرباء بأموال الصدقة والزكاة. وبالرغم من هذه الخصوصية فان المسلم مطالب أيضا برد أقربائه عن الظلم والحرص على حقوق الآخرين (٧).

٢- التاريخ والأخلاق

التوراة كتاب يؤرخ لفترة طويلة من الزمن ويركز اهتمامه على سرد الأحداث. وقد ساد اعتقاد عبر الزمن بأن التوراة هي ما أوحي به إلى أنبياء بني إسرائيل، لكن عددا كبيرا من المؤرخين الآن لا يعتقدون ذلك. فمثلا أهملت فكرة أن الأسفار الخمسة الأولى كتبها موسى، لكن هذا لا يمنع من الاعتقاد بأن موسى هو أب هذه الأسفار (٨). ويقول أحد الكتاب أنه على الرغم من أن جزءا لا بأس به من سفر حزقيال يعود إلى النبي نفسه، إلا أن هناك دليلا على تحرير لاحق للكتاب (٩). ويقول آخر في دفاعه عما ورد في التوراة حول تدمير أريحا وعاي أن هاتين المدينتين كانتا مدمرتين عندما دخل العبرانيون البلاد. ولكي يؤكد هذا النفي يقول إن الذين كتبوا قصتهما في التوراة أخذوا معلوماتهم عن قصص قديمة وألبسوها للتوراة (١٠).

من المحتمل أن عملية التحرير اللاحقة صبغت التوراة بطريقة لا تعكس الاسلوب الأصلي لها فظهرت وكأنها كتاب في التاريخ أكثر مما هو في الأخلاق. وتحظى تجارب بني إسرائيل بالقسط الأوفى من الكتاب، وتكثر الأحاديث عن انتصاراتهم وهزائمهم، وحب الله لهم وغضبه عليهم.

لكن الكتاب لا يخلو من التشريعات الأخلاقية، بل هناك تشريعات كثيرة خاصة في الأسفار الأولى من الكتاب. فمثلا على العبراني أن يحترم أخاه في كل وقت وألا ينتهك حرمته (١١)، وعليه أن يمد يد العون إلى أفراد مجتمعه، وعليه أن يقول دائما قولا حسنا وألا يسب الناس أو يخاصمهم (١٢). وعلى العبراني ألا يرتكب جورا في القضاء، وألا يشهد زورا في المحكمة (١٣)، وألا يسعى في وشاية... الخ (١٤).

الصفة الأخلاقية بارزة جدا في الانجيل وتحظى بتركيز واسع. صحيح أن الأناجيل الأربعة تتحدث باسهاب عن المعجزات التي كانت تظهرها أعمال السيد

المسيح من إشفاء للمرضى وإحياء للموتى، لكن ذلك كان بغرض بعث الايمان في قلوب الناس من خلال مظاهر مادية مرئية. فلم يكن الهدف التمييز بين قوم وقوم ولا إعلاء كلمة قبيلة أو مجموعة من الناس الذين تربطهم روابط دم على كلمة أخرى. هناك قيم أخلاقية عديدة في الإنجيل كتحريم الغش والزنى والسرقة، إنما القيمة العليا تبقى إنكار الذات والايثار. فقد اعتبر المسيح بصورة ضمنية أن حب الانسان لذاته وأثرته توقعه في الخطيئة من خلال إنجراره وراء شهواته. وقد دفعت هذه القيمة إلى حد دعوة الانسان إلى تصغير خده الآخر إذا لطمه أحد على الأول. فالهدف هو تذليل قلوب الناس للايمان، والمعاملة الطيبة هي أفضل الوسائل الاقناعية بأن الله أحق من يطاع. ومن هنا فان رسالة المسيح تتلخص في "أن تعطي" لا "أن تأخذ"، وما دام العطاء هو أساس السلوك فلا مجال للنزاعات والصراعات على الأرض.

أما القرآن فهو أساسا كتاب في الأخلاق. إنه لا يؤرخ ولا يكتب سيرة الرسول محمد عليه السلام. وبالمقارنة مع التوراة، يشير القرآن إلى الأنبياء بقصص تهدف إلى العظة واستخلاص العبر وليس بهدف التأريخ. وبالمقارنة مع الأنجيل، فان القرآن لا يركز على السيرة النبوية ولا يذكر منها إلا بعض الجوانب المتعلقة بقواعد الايمان.

يعطي القرآن أهمية كبيرة لأخلاقيات التعامل فيرفض كل جنوح سيء كشيء يؤدي بالانسان إلى نار جهنم يوم القيامة، ويستحسن كل سلوك خير كشيء يؤدي إلى جنة النعيم. لكن القرآن يختلف عن الانجيل باعترافه بعجز البشر عن بلوغ الكمال، وبالتالي يعترف بحاجات الانسان الدنيوية التي يجب أن تضبط حسب التعاليم الشرعية. وقد اختار القرآن فضيلة الوسط لتميز أمة المسلمين والتي هي فضيلة الاعتدال والانضباط ليشبع الانسان حاجاته دونما تهور، ولا يقصر في حق نفسه سواء من الناحية المادية أو الروحية.

شجع الاسلام العطاء، ووعد في مقابله الجزاء يوم القيامة، لكنه وضع حدودا لانكار الذات. فمطلوب من الانسان ألا يكون معتديا، لكنه مصرح له بالرد إذا اعتدي عليه إلا إذا أراد أن يصفح. أما الأمة الاسلامية فمطلوب منها أن تكون جاهزة دائما للرد على العدوان. ولهذا شرع الله الجهاد الذي إن تركته الأمة هلكت وسيطر عليها أعداؤها.

من الناحية السياسية، يتمسك القرآن بضرورة أن تمتلك الأمة وكذلك الانسان عناصر القوة، وذلك لأنه يقر بأن هناك صراعا بين الخير والشر. ولذلك فان على قوى الخير المتمثلة بالمؤمنين أن تبقى مستعدة وجاهزة لمقارعة الباطل. وإذا كان هناك سلام يتم الاعتراف به فانه السلام الذي يحترم أمة المسلمين وحريتها في تطبيق الشريعة الإلهية وفي تحقيق التقدم والازدهار. فالسلام لا يقوم على حساب الأمة الإسلامية لأن ذلك يعتبر تسليما لأمر الأعداء وليس لأمر الله.

الإنجيل لا يتحدث عن بناء أمة لكنه يركز على بناء الإنسان المؤمن الذي يلتقي مع إخوته المؤمنين. وبالرغم من اعترافه بوجود الخير والشر، إلا أنه يقاوم الشر بالحسنى. أما على مستوى الأمم، فلا يبدو أن هناك إمكانية لرسم خطوط لكيفية إدارة الصراع. وهذا يختلف عما هو وارد في التوراة التي تعتبر الشعوب والأمم غير العبرانية أداة الله التي يمكن أن يسخرها لأحد أمرين: إما لخدمة العبرانيين أو لتسليطها عليهم بسبب عصيانهم أوامر الرب. وهذه فكرة تستبعد فكرة السلام بين الأمم لأن الاعتراف المتبادل بالتماسك الأخلاقي والتكافؤ غير وارد.

٣- الارض وفكرة الاستقرار

استحوذت الأرض في التوراة على قسط وافر من الشرح والتعليم، وهي تشكل أحد العنصرين التوراتيين الأساسيين وهما الاختيار والوعد. ولعل في هذا ما يفسر مشكلة اللاوطن التي عاناها العبرانيون عامة والذين كتبوا الأسفار خاصة. فقد تميز تاريخهم بالتنقل والترحال والاضطهاد وكذلك بعدم القدرة على التكيف والتأقلم

مع الآخرين بسبب تمسكهم بفكرة التفوق والتميز. وقد حالت فكرة العلو دون التعايش السلس مع الآخرين فكانت علاقاتهم بهم في أغلب الأحيان متسمة بالصراع الساخن. وهذا ما عرضهم، حسب التوراة، إلى هزائم متكررة كانت تؤدي إلى سبيهم أو تشتتهم.

والأرض بالنسبة الى العبرانيين هي أحد عناصر الأمن والاطمئنان، وهي قاعدة الاستقرار التي تضمن للعبراني حرية ممارسة طقوسه الخاصة. وإذا لم تكن الأرض خاصة به وحده فانه لا يستطيع الاستمرار في التعايش مع من يقطن معه لأن شعوره بالتفوق يحرمه من الاطمئنان إلى جاره ويحرض جاره عليه. ولهذا فان القيمة العليا في الاستحواذ على الأرض تكمن في الأمن لا في السلام. فالسلام يتناقض أولا مع الشعور بالتفوق ويتناقض كذلك مع الرغبة في استحواذ الأرض على حساب الآخرين، وبالتالي فان العبرانيين لا يبحثون عن السلام وإنما عن أمنهم الذي يمكن أن يوفره الرب إذا اتبعوا وصاياه. أو من خلال القوة والتركيز على أسباب توفرها، وذلك حسب منطق إسرائيل في تشكيل العلاقات في المنطقة.

وعقدة الأرض هذه غير واردة في الإنجيل والقرآن، رغم أن المسلمين مطالبين بالجهاد دفاعا عن الأمة الإسلامية. وهذا بالضرورة يتطلب الدفاع عن أرض المسلمين. وحيث أن الدعوة الإسلامية أممية فان الأرض الإسلامية ليست حكرا على قوم دون آخرين، وبالرغم من أن السيادة عليها للمسلمين إلا أنها ليست حكرا عليهم. فلغير المسلمين الحق في الأرض، ولهم الحق في المشاركة دون ظلم أو اضطهاد. ولذلك فان الله لم يعد المسلمين أرضا دون غيرهم، ولم يميزهم عن الآخرين من خلال حرمان غيرهم من أوطانهم أو حقوقهم. فحسب القرآن،

"قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين" (١٥).

وحسب آية أخرى لها علاقة مباشرة ببني إسرائيل

"وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم(١٦).

× × ×

٤ - الهوامش

١- Steven Katz, Jewish Ideas And Concepts, New York: Schocken Books, 1977, p.139.

٢- عاموس، ٩: ٧-٨.

٣- عاموس، ٣: ٢.

٤- Katz, Op. Cit., P 139.

٥- الحجرات، ١٣.

٦- النساء، ٣٦.

٧- النحل، ٩٠.

٨- بوكاي، م س، ص ٢٣.

٩- Louis Jacobs, Jewish Mystical Testimonies, Jerusalem: Keter Publishing House Jerusalem Ltd., 1976.

١٠- Jay Williams, Understanding The Old Testament, New York: Barron's Educational Series, Inc., 1972, P. 45.

١١- خروج، ٢٠: ١٣- ١٧.

١٢- أمثال، ٣: ٢٧-٣٠

١٣- لاويين، ١٩-: ٢٣-٢٧.

١٤- لاويين، ١٩: ١٦.

١٥- الأعراف، ١٢٨.

١٦- البقرة، ٢٤٧.

